نحن والردى

شعر

صلاح أحمد إبراهيم



- ولد الشاعر صلاح أحمد إبراهيم في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٣٣ م بمدينة أم درمان .. وتعلم في مدارسها.
- التحق بجامعة الخرطوم في عام ١٩٥٤ م وتخرج في كلية الآداب.
- أصدر أولى مجموعاته الشعرية ٠ (غابة الأبنوس) في عام ١٩٥٩ م .
وكتابات نقدية ومقالات أدبية وسياسية وقصص نشرت في معظم الصحف والمجلات السودانية والعربية.
له ترجمات أخرى منها كتاب (النقد الأدبي) .كما اشتركا في ترجمة كتاب (الأرض الآثمة) تأليف باتريك ڤان رنزبيرج ،
- اشترك مع رفيق دربه د. علي المك في اصدار مجموعة قصصية بعنوان (البرجوازية الصغيرة)
- أصدر مجموعته الشعرية الثانية (غضبة الهبباي) في عام ١٩٦٥ م
له بالعامية السودانية ديوان (محاكمة الشاعر للسلطان الجائر) وصدرت في عام ١٩٨٥ م .
- عمل بتدريس اللغة العربية بجامعة أكرا في غانا إبان حكم الرئيس كوامي نكروما .
- عمل بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية السودانية وانتدب للعمل في بعثة الأمم المتحدة بنيويورك .
- تقلد منصب سفير السودان لدى الجزائر وترك المنصب مستقيلاً احتجاجاً على سياسة نظام جعفر النميري .
- انتقل إلى باريس وكتب لعدة صحف ومجلات تصدر بفرنسا .
- عمل خبيراً مستشاراً لدى سفارة دولة قطر بباريس حتى وفاته في ١٧ مايو ١٩٩٣ م .
- كان مناضلاً شرسا من أجل الحقيقة وقضايا التحرر الوطني والديمقراطية في أفريقيا والعالم . ومدافعاً مستميتاً عن شعب السودان ضد دكتاتورية جعفر النميري.


المرتضى
للكتب السودانية

صلاح أحمد إبراهيم

نَحْنُ وَالرَّدَى

شعر

تقديم الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب



نَحْنُ وَالرَّدَى

نحن والردى / صلاح أحمد إبراهيم - مجموعة شعرية ، ٢٠٠٠

مبادرة طباعة هذه المجموعة تعود إلى الأستاذ عثمان العمير (رئيس تحرير "الشرق الأوسط" سابقاً)

مبادرة فرز وترتيب وإعداد قصائد هذه المجموعة ، في لندن، تعود إلى السادة : عثمان وقيع الله، محمد عبد الله، محمد سليمان الشاذلي ، فتحي محمد عثمان ، علية عاقب محمود ، الطيب صالح وفاطمة أحمد إبراهيم.

مراجعة النصوص وتعديلاتها مع نشريات وأصول لدى أصدقاء الفقيد تعود إلى : منصور عثمان البارودي، عبد القادر محمد عثمان، محمد الحسن محيسي ، ويوسف عيدابي.

٨١١.٩٦٢٤-٩٤

ص أ.ن صلاح أحمد إبراهيم

نحن والردى: شعر/ صلاح أحمد إبراهيم

، تقديم عبد الله الطيب ـ ابوظبي : دار

الوحدة ، ٢٠٠٠

١٦٤ ص ؛ ١٤ X ٢٤ سم

١ـ الشعر الحر ـ السودان ٢ـ الشعر

العربي ـ العصر الحديث أـ عبد الله الطيب (مقدم)

ب ـ العنوان

الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الطابعون:

الظفرة للطباعة والنشر - أبوظبي : ص.ب : ٢٤٨٨

تلفون : ٤٤٨٨٤٠٠ - فاكس : ٤٤٨٨٢٠١

الإعداد والمتابعة ومعالجة الصور: الهادي أحمد إبراهيم

التنضيد: سعاد الجزائري

الخطوط: تاج السر حسن

الإخراج : معاوية الدقاق

تصميم الغلاف: ضياء الدين الدوش

كلمة عن شعر الشاعر صلاح أحمد ابراهيم

تقديم : الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

قرأت في زمان مضى كلمة للأستاذ صلاح أحمد ابراهيم رحمه الله في إحدى المجلات أو كتيب (لا أذكر على وجه التحديد) بعنوان « ماتوا سَمْبَلة » أحسبها كانت مقالة كقصة أو قصة صغيرة كمقالة، وصف فيها جنوبياً (لم يحدد قبليته ولكن يغلب على الظن انه من الاستوائية) بيده أداة موسيقية يترنم بها ويغني بين حين وحين : « ماتوا سمبلة » .

و« سمبلة » هذه تحريف للكلمة الانجليزية Simple . وكأن الأصل جملة انجليزية They simply died صاغها الجنوبي المترنم أو توهمها أو سمعها أو صيغت له، أي ذلك كان، ولبست في غنائه وترنمه معنى « ماتوا همله » كما نقول في اللسان العامي أو بلا سبب ولا دافع، وكأن القاتل قتلهم بلا « غبينة » . ماتو سمبلة كما يموت النمل يقتله الولد الصغير بإصبعه، أو كما يقتل الذباب، ماتوا سمبلة .

في المقالة حزن شديد عميق وفيه دموع كأنها تجري من موسيقا الجنوبي وترنمه . كأن هذا الجنوبي نفسه يرثي القتلى « سمبلة » بلوعة ويعلم انه هو وقومه ضيعوا حياة هؤلاء القتلى بلا سبب . كانوا يظنونهم صقوراً جارحة فاذا هم ذباب يعصرونه ويهصرونه ويفطس . أثرت في نفسي تلك المقالة . أحسست فيها رقة بالغة .

قرأت لصلاح من شعره من بعد . وأسفت لأنه ترك الوزن الرصين

الذي في مدحه لصهره الشفيع أحمد الشيخ رحمه الله:

يا شعب ان أبدى الجبانُ خنوعا

لا تيأسنْ فقد ولدتْ شفيعا

وقد ذكر في مقدمة هذا الديوان الذي بين يديك أيها القارىء الكريم انه نظم هذه الأبيات العينية وهو ابن عشرين وهي سن العمر الحلوة كما قال شكسبير Sweet and Twenty، فلعله ان لو استمر على هذا النسق ان يلحق بطبقة التجاني رحمه الله، لما ههنا من رصانة لفظ وجودة نغم، لكن صلاحاً رحمه الله آثر ما سماه المعاصرون «الشعر الحديث».

هذا الشعر الحديث أدَّعى اختراعه والسبق اليه جماعة. أدعت نازك الملائكة السبق اليه واختراعه فيمن سبقوا اليه أو اخترعوه. وهذا عجيب لأنها استشهدت بأبيات الناقوس المنسوبة الى علي كرم الله وجهه:

يا ابن الدنيا مهلا مهلا

وهي أبيات عدة. ويكون على هذا سيدنا عليٌّ اخترع وزن التفعيلة لا نازك. والحق ان أنواع الوزن واللاوزن كثيرة وسبق اليها كثيرون منذ نشأ شعر العرب. وممن ينسب اليهم السبق والاختراع بدر شاكر السياب، والبياتي، ونزار قباني. والحقيقة ونحن في السودان الأسود ألوان بشرة عربه سبقناهم ـ سبقنا هؤلاء الذين أدعوا السبق أو أدعى لهم. وقد ذكرتُ في بعض ما كتبت ان أبا بكر احمد موسى، الاستاذ الأديب البارع رحمه الله، كان يخترع أوزاناً يحاكي بها أحياناً نغمات الطيور وزقزقات العصافير.

وقد كنت معجباً باغاني شكسبير وكانت لدينا في كلية غوردون اسطوانات مثل: It was a lover and his lass

ومثل: Come away come away death

ومع ان عدداً من خطب مشهورات رواياته كان مقرراً علينا وكنا به معجبين، ما كنت (مع ما كان يقال لنا انه شعر مرسل) أراه إلا نثراً. وقد وجدت أستاذ الانجليزية بجامعة الخرطوم من بعد البروفيسور

ليفي يرى ذلك أيضاً، ولكن زملاؤه قالوا انه يهودي، ولا أدري ما صلة هذه العنصرية بالنقد. هذا وكان الشعر الانجليزي الموزون لا يعجبني لضعف وزنه. ولفتني أحد زملائي النجباء الى جمال قصيدة أو مقطوعة قنطرة وستمنستر لوردزورث التي درّسها لهم المستر هارت، وكان حريصاً على تحبيب طلبته في الشعر الانجليزي، ولم تعجبني أول الأمر، ولكني حملت نفسي على الأعجاب بها وبسائر ما تقليناه من شعر وردزورث، ثم أقبلت على محاولة النظم المرسل والأوزان المختلفة على طريقة شوقي في مسرحياته، ثم على أوزان كالمخترعة أو كالحرة. ثم بعد هذه الفتنة الشبابية أعرضت إعراضاً عن التفعيلات السائبة وما بمجراها. وأذكر إذ كتب اليّ المرحوم محمد عبدالحي، وهو يعد رسالة الدكتوراه بجامعات بريطانيا، يسأل عن أمر هذه المحاولات ليزعم انها أسبق من محاولات من ادعوا السبق الى الشعر الحر من المعاصرين ثم كان قد صح عنده انه لا فائدة في هذه المغالطات التي لا تخلو من بعض نوع من العصبية، إلا تكن عصبية قبلية فلعلها شبيهة بعصبيات أتيام الكرة ونعراتها القومية.

مع توجه صلاح رحمه الله نحو الشعر الحر الحديث أبى النغم البارع الرصين القديم إلا ان ينبثق من أسطره الجياد. لاسيما نغم بحر الرمل كما في قوله:

يا ذكي العود بالمطرقة الصماء والفأس تشظى

وبنيران لها ألف لسان تتلظى

ضع على ضوئك في الناس اصطباراً ومآثر

مثلما ضوع في الأهوال صبرا آل ياسر

فلئن كنت كما أنت عبق

فاحترق

وان شئت ألحقت «فاحترق» «بعبق» بعد فاصل ما. المعاني واضحة، مشرقة، مأخوذة من مصدرين معروفين في حياتنا اليومية الى عهد قريب: الأول عمل الريحة للعرس والطهارة ـ يدق الصندل أو

الكليت والشاف أو ما عسى ان يكون من حطب الطيب. والمصدر الثاني حطب الوقود «لتقابة» الخلوة والقرآن. والحطب يجمع من الغابات وأشجار القرية، ثم يكسر بالفأس، وكلاهما - خشب الطيب وخشب وقود التقابة - يعرض للنار فتشتعل، ومجمر البخور قد يوضع فيه اللبان وسواه. وحطب التقابة ترتفع ألسنة نيرانه وتستضيء بها الحلقة التي حولها من الحيران.

وكلمة ضوع في قوله «مثلما في الأهوال صبرا» قد تلمس فيها فتجده معنى ضوّع الذي للطيب وللبخور ومعنى ضوًّا بتشديد الواو الذي من الضوء بقلب الهمزة عيناً على اللهجة الشائعة في كثير من كلام أهلنا.

الافتتان في قوله:

فلئن كنت كما أنت عبق

فاحترق

قمة في حسن التعبير وإصابة عين الثور Bull's eye كما يقال بالانجليزية من أساليب الطفرة التعبيرية. وتوضيح ذلك ان البخور تزكو رائحته بالاحتراق كما هو معلوم، وكما أشار اليه حبيب بن أوس (أبو تمام) في قولته المشهورة:

وإذا اراد الله نشر فضيلة

طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف طيب عرف العود

فالشاعر هنا يقول للمجاهد المناضل الصابر المخلص الحسن الأعمال «أنت عطر فائح الطيب بعملك الطيب، ولكن ذكاء عطرك يفوح حقاً حين يحترق. لذلك فاحترق يا أيها الطيب العبق الرائحة لكي تفوح وينتشر طيبك».

ولئن كنت كما أنت عبق،

فاحترق

وفي النغم انبهار ومفاجأة. ولذلك يجوز الوجهان - فاصل بعد عبق، وتكتب «فاحترق» في نفس السطر. أو تكتب في السطر الذي يلي - فإنها بيت شعر كامل. لأن الوقفة عند آخر الشطر الفائت طويلة تعادل أكثر من نصف شطر، وتكون بقوله «فاحترق» شطراً تاماً.

وتأمل بعد قوله:

- مثلما ضوع في الأهوال صبرا آل ياسر - هنا اشارة ثقافية اسلامية شديدة الوغول في بحبوحة الاسلام. آل ياسر مثل عال في الصبر والاستشهاد. حتى عمار المجاهد التواب المهاجر، (وقد ولاه عمر)، لم يسلم من الأذى، وقد قتل شهيداً في صفين. وفطن شوقي الى هذا في قوله:

وأوقع الأنجاد بالأنجاد وخرّ عمّار من النجاد

وممن فطن من قبل زمان شوقي، الوزير الاندلسي ابن عبدون حيث قال في رائيته المشهورة:

وما رعت لأبي اليقظان صُحبتهُ

ولم تُزودْه غير الضَّيح في الغُمر

والضمير يعود على الليالي وعلى صروف الزمان وأحواله، وأبو اليقظان هو عمار ابن ياسر، والضيح بالضاد المشددة المفتوحة بعدها ياء ساكنة (يا مُثناة تحتية) أي اللبن، آخر الكلمة حاء مهملة، الغمر بالغين المعجمة المضمومة بعدها ميم وراء بوزن عمر أي القدح الصغير.

في شعر صلاح إشارات اسلامية السّنح. قوية منبثقة بلا تكلف من أصول معانيه وعواطفه وانفعالاته - كقوله:

حُزننا ونحن الصامتونْ

فابطشي ما شئت فينا يا منونْ

كم فتىً في مكة يشبه حمزةً

ولم يفجع الرسول صلى الله عليه وسلم بأوجع من مقتل حمزة، وقال الكلمة المشهورة، لما رأى نساء الأنصار يندبن من قتل في أحد

من رجالهن: «ولكن حمزة لا بواكي له»، فاقبلن يبكين حمزة، وقال شاعرهم:

صفية قومي ولا تعجزي وبكّى النساء على حمزة

والإشارة الاسلامية غير ما قدمنا كثيرة في شعر صلاح - رحمه الله - مثلا:

وضمير لم يذق، والشعب في السبي، اغتماضه

وبقلب كحجيج محرم عند الإفاضة

ومثلا:

ونزوع للذي خلف الحجاب

برهة من سرمد الدهر أقمنا

ما عرفنا بم أو فيم أتينا وانتهينا

الشاهد هنا (نزوع للذي خلق الحجاب أي الغيب كما في سورة الشورى) نظره الى قول زياد: «في الزمن السرمدي الذي لا يزول - واصل هذا قرآني من سورة القصص. ومثلا:

وآل عليٍّ حفاةٌ ظماء

وآل زياد عليهم نعيم

وآل زياد فيهم سفاح وفيهم فجور وظلم، وذكر المؤرخون ان غناهم استمر الى الزمان العباسي فتأمل.

وفي هذه الكلمة نفسها:

ويا فارساً وحده في الطريق

على الرمح متكئاً نازف الجرح مات

بعد ان أمّن الخائف.

هذا الفارس هو أحد الصناديد الأربعة المذكورين المشهود لهم بالتفوق في الشجاعة، هو ربيعة بن مكدّم حامي الظعن، رموه بسهم فاتكاً على رمحه والفرسان يتحاشونه حتى سلمت النساء من السباء. والخبر مذكور مشهور، من بني كنانة من بني فراس بن غنم الذين

تمنى سيدنا علي أن لو كان معه منهم مائة فارس مكان العصاة المتمردين الذين كانوا حوله.

لا عجب من استكثار صلاح من الشواهد والإشارات الدالة على تأثره بثقافة السيرة والدين ونوادر الأدب العربي، فقد نشأ في دار ثقافة اسلامية، وكان أبوه رحمه الله من أساتذة العربية والدين، معلماً شديد التقوى، غضيض الطرف، معروفاً بذلك، مشهوداً له فيه.

وقال صلاح يفتخر ببعض ذلك في قريضه:

نترك الدنيا وفي ذاكرة الدنيا لنا ذكر وذكرى

من فعال وخلق

ولنا إرث من الحكمة والحلم وحب الآخرين

وولاء حينما يكذب أهليه الأمين

ويكذب أهليه أخذها بلا ريب من الحديث «ان الرائد لا يكذب أهله»، ولا أحسب صلاحاً خرج عن مجال الاسلام والعربية في اشاراته إلا في موضع أشار فيه الى الصليب. وحمل الصليب، دلالة على احتمال التعذيب والمشقات في مواجهة النهاية والمأساة، كثير في اشعار العصر المتأثرة بأساليب الإفرنج. كان المستر تشرشل يعبر عن تبرمه وضيقه بالجنرال ديجول بقوله ان اثقل صليب كان يحمله هو صليب اللورين، وهو شعار ديجول، أصله من مأساة جان دارك، التي حررت فرنسا، وخذلها الملك شارل السابع فلم يحاول نجدتها لما حرقت في روان.

وأصل معنى حمل الصليب من أساليب جبروت الروم القدماء، فإنهم كانوا حين يحكمون بإعدام امرىء صلباً يجعلون الصليب من خشبتين، خشبة قائمة عمودية يحفرون لها حفرة ويثبتونها فيها قائمة، ويكلفون المحكوم عليه بحمل الخشبة الثانية التي تجعل معترضة فوق الخشبة القائمة، ثم بعد ذلك يسمرون يديه على الخشبة المعترضة، التي جاء وهو يحملها، يجعلونها على رأس العمود كحرف «تي» الافرنجي، ويدخلون المسامير بين عظمي اليد عند الرسغ ويخترقون عظام القدمين بجعل المسامير بين العظيمات الصغيرة

التي في القدم، وقد وضعوا قدماً فوق الآخر، وسمروهما معاً على الخشبة القائمة.

وزعم النصارى ان الروم صلبوا المسيح بتدبير اليهود.، وفي القرآن: «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم». وينسب الى بعض المسلمين المتأولين انهم قالوا هذا كمثل قوله تعالى «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» فالمعنى هنا ان الله هو الذي قتله وصلبه لا هم. وهذا خطأ. آية الأنفال (١٧) «وما رميت إذ رميت» لا تنفي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى حين قذف حفنة التراب وقال شاهت الوجوه، ولكن تدل على ان رمية رسول الله كانت معها سطوة الله. وهذا كمثل قوله تعالى: «ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم» أي قوة الله وعونه مع اخلاصهم والعهد الذي عاهدوه. ولم يقل الله عز وجل «وما قتلوه إذ قتلوه وما صلبوه إذ صلبوه ولكن شبه لهم» كما قال عز وجل: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» فالآية دالة دلالة قاطعة على ان عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، والذي تاوله المتأول على تمثيل آية النساء (١٥٧) «وما قتلوه» «بآية الأنفال» «وما رميت» تمثيل خاطيء بلا شك بلا أدنى شك..

وما أرى ان صلاحاً قصد اليه ولكن سار على المألوف من عبارات أهل العصر مسايرين لعبارات الإفرنج في هذا المجال، وبين يدي عشرات من دواوين أهل العصر ترد فيها عبارة حمل الصليب كما ترد عبارة «كودتا» في اللغة الانجليزية و«ويكند» في اللغة الفرنسية وهذا تقريب للفكرة على بعدها.

مصدر مهم من مصادر الاشارة والمجاز في بيان صلاح رحمه الله هو عادات أهل بلدنا وتقاليدهم. وهذا واضح في القصيدة التي أعجبت صديقه علي الملك رحمه الله. وبعض هذه القصيدة ينظر نظراً شديداً الى منظومات الموت التي ينشدها المداح مثل:

زايلة الدنيا دي الما بدوم لي خيرا

ولت وأدبرت وبقت عصيرا

ويذكروننا ان مصير الانسان الى حفرة عرضها شبر.

ما الذي أقسى من الموت؟

فهذا قد كشفنا سره وخبرنا مره

ما جزعنا ان تشهانا ولم نرض الرحيل

(أحسبها ولم نرض لا ولم يرض بالنون لا بالياء كما في النص المطبوع)

فله فينا اعتباق واصطباح ومقيل

آخر العمر قصيرا أم طويل

كفن من طرف السوق وشبر في المقابر

هذا موضع استشهادنا على الأخذ من تقاليد البلد وعاداته. ولنا في الدفن أسلوب بعضه مأخوذ من السنة التي كان عليها عمل أهل المدينة وبها دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعضه ماخوذ من عادات وطننا القديم في أيام ما قبل الميلاد حسب تاريخ علماء الآثار الى عصر طويل بعده ـ من ذلك الحمل على العنقريب والتغطية بالسرتي. وأول من دفن على عنقريب (نعش) من أهل الاسلام سيدتنا أم المؤمنين زينب بنت جحش. أشارت بحملها عليه سيدتنا أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، قالت رأت النعش بأرض الحبشة التي هاجر اليها الصحابة سيدنا جعفر وسيدنا عثمان ومن معهم، هي هذه البلاد لا بلاد اكسوم وقندار، لأنهم لا يحملون الميت على العنقريب.

شاهد آخر قصيدة صلاح في رثاء علي الملك ،رحمهما الله، وقوله (اغتباق واصطباح ومقيل)، مأخوذ من اصطلاحات العرب الأوائل لشراب الصبح والليل والقيلولة ـ واستعمل صلاح كلمة المقيل للدلالة على القيل، فقد جاء بها مناحة واستعمل فيها عبارات البكاء التي نبكي بها:

علي شريك النضال على رفيقي

ويا خندقي في الحصار ويا فرجي وقت ضيقي

ويا صرة الزاد تمسكني في اغتماض الطريق

ويا ركوتي كعكعت في لهاتي وقد جف ريقي

على ذراعي اليمين على خريفي

ونيلي وجرفي وبهجة ريفي

ولا يخفى ان خندقي في الحصار «مأخوذة من خبر السيرة وغزوة الاحزاب في السنة الخامسة من الهجرة.

ذهب صلاح رحمه الله الى غانا مدرسا، وأحسب أن من أسباب ذهابه اليها قد كان بعض الاعجاب بيسارية قوامي نكروما دعوته الشاملة يرجو بها نهضة افريقيا السوداء. وأحسب ان صلاحاً وجد في غانا شيئاً ترك فيه أثراً عميقاً للغاية، زعزع عنده اليسارية العربية التي كانت أمراً مثالياً رائجاً في سنوات الخمسين والستين.

الذي وجده في غانا هو إسلام غرب افريقية - اسلام يختلط بالشخصية فتنصهر فيه وينصهر فيها. إسلام له اعتزاز يقاوم به تعالي العنصرية الافرنجة وغزوة التبشير الصليبي. إسلام فيه صوفية وزهد وبساطة وقوة وتحد، وراجع في أصوله لا الى الفتوح وصراع الخلافة والشيعة والسنة والشراة لكن الى أهل الصفة وأويس القرني وسعيد بن المسيب ومعروف الكرخي ورابعة العدوية وعبدالرحمن التكروري وعبدالسلام بن مشيس ومختار الكنتي ومقاومة التجانية والقادرية للغرب المستعمر المسترق.

قال لي الاستاذ محمد المدني الأمريكي الافريقي في مدينة لوس انجلوس عام ١٩٨٢م في ديسمبر وكان ذلك في احتفالات المولد النبوي ١٤١٢هـ: «أنا التمس اثبات نفسي ووجودها بالاسلام. لا التمس أي كسب سياسي أو اقتصادي، أريد ان اكون بشراً هو أنا، أحترم نفسي من حيث كينونة البشرية. يمكنني ان أكون بلا إسلام مليونير أسود أو أي شيء طبقي كبير أسود ولكن مع ذلك أكون أنا مسلوب البشرية. بالاسلام تكون بشريتي موجبة».

هذا الايجاب لبشرية الشخص محسوس ملموس في اسلام غرب افريقية. ولما ثار بعض المستعبدين السود في امريكا الجنوبية في منتصف القرن الماضي ثورة مفاجئة، وكانوا من أطوع العبيد وأصبرهم على العمل، استغرب سادتهم، ثم اكتشفوا كتابات يديرونها بينهم

على ألواح ،واستشاروا فيها الكنيسة، فأخبرهم الفاتيكان انها كتابات تعاليم صلوات اسلامية، وان الصواب من التصرف هو التخلص منهم حالا وبسرعة بارسالهم في سفن الى شاطىء غرب افريقية. وكان السلطان محمد بلو وأصحابه يطمعون ان يصل الإسلام الى شاطىء بلادهم الغربي، ولكن كانوا يعملون ان هناك سفن النصارى بنيرانها وسطوتها - فقد أرسل الآن النصارى رقيقهم المسلمين الى نفس الشاطىء ليتخلصوا منهم ومن دينهم.

لا أشك ان صلاحاً - رحمه الله - تأثر بروح هذا الاسلام وقوته غير المتكلفة التي احسها في غرب افريقية. الاسلام عندنا في السودان قوي وبسيط وانساني المساواة. ولكن جاءنا اسلام حضاري معقد عن طريق محمد علي باشا، ومن طريق مذاهب مختلفة الاهواء في بلاد الشرق العربي وغير العربي التي قال عنها رسولنا صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته: (اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم)، ووصفها عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما بانها فتنة تموج كموج البحر.

أذكر لما كنت بانجلترا، أعد لدرجات شهاداتها، ان منزل حركة الطلاب في شارع غاور كان يعج باليساريين على مذاهب غرب أوروبا وشرقها وبين ذلك. وكانوا كلهم ينصرون دعوة الصهيونية على شكاوى العرب بحجة ان العرب اقطاعيون متأخرون. وكان معنا طلبة من غرب افريقية، فكان الميل الى جانب بني قريظة عندهم كما كان عندي أمراً منكراً. (من العجب انه كلما بلغني من عالم بالأمر ان قد ولد قوامي نكروما صغيراً مسلماً في ناحية «كماسي» من ساحل الذهب، واختطف، ونُصِّرَ، ومع ذلك يُسّرَ وهذا عند المبشرين لا يناقض الصليبية، وصار عدواً لإسلام غرب افريقية، وتآمر سراً وجهراً ضد قادته، وكان مقتل احمد بلو وأصحابه هدفاً - ولكن هذا باب آخر لا انصرف اليه الآن.

رحمة الله على علي الملك وعلى صلاح كليهما. آخر عهدي بصلاح في مربد بغداد آخر سنة ٨٩م أو ٨٨م - أذكر اشراق وجهه وحديثه الكريم المشجع المتفائل المناصر - كان ذلك آخر العهد به، وبعد زمان غير بعيد منه كانت وفاة علي الملك المفاجئة وموقفنا عند

صندوق جنازته في مقابر البكري.

ثم بعد مدة غير طويلة وأقرب الى ان تكون جد قصيرة قضى صلاح نحبه ولم ينتظر - وكنت أرجو ان ألم به وأُحييه في بعض غدواتي وروحاتي الى مطار باريس في طريقي الى بلاد المغرب الأقصى رحم الله صلاحا - شعره رنان وقوافيه حسان، قال رحمه الله:

ان بي شوقاً الى الشعر الذي أحمله رمحاً طويلاً ومجناً

«كربيعة بن مكدم»

ان بي شوقاً الى القافية الحسناء كالصهباء أدنيها لكم دناً فدناً

ناء شعري بالذي كان حمل

من رزايانا وأبياتي في المهد صبية.

لصلاح نغم متين مستقيم رصين في بحري الرمل والمتقارب والأول أكثر. وانتهى رثاؤه لعلي الملك رحمهما الله بقوله:

مضيت وخلفت لي ترحة	**كأن للمنية عندي ثأر**
وغوّرت في مهجتي فرحة	**إذ ما ذكرتك ذات اعتصار**
وهذه المرارات في شفتي	**كهذي الدموع الغزار الحرار**
وطيفك يخطر في مقلتي	**يحنظل حلواي ليل نهار**

وهذا هو النغم الذي أقبل الخليل على تحليله وفك طلاسمه معجباً مغرماً مفتوناً برنات التفاعيل فحسب ابنه إذ سمعه يرددها انه مجنون - الشعر موسيقا العرب منذ الأزل القديم، حتى قابيل حين قتل هابيل نسب اليه الرواة انه رثى ابنه بقصيدة عربية.

لعل صلاحا رحمه الله تأثر ببعض نظم استاذه كاتب هذه السطور وذلك ان صح مما افخر به وأتشرف - مات لي أخ يدعى «حسناً» ابن ست سنين غريقاً وزعم الاستاذ الجامعي محمد يوسف مصطفى الواثق اني أقمت له مناحات في دواوين شعري. في أصداء النيل في طبعته الأولى سنة ١٩٥٧م:

حبذا خبز بركدال ومبيض اللبن

بيعك الماضي من عمرك بالآن غبن

ولقد أحزنني ان خيط في الدار الكفن

مثلما احزنني ان قطف الموت حسن

ودياب قرع الطبل فدوى ورطن

والفتى المادح قد رقق صوتا ولحن

وفي « نافذة القطار »، طبعته الأولى سنة ١٩٦٤، ص ٤٦ /١٤٧ :

وقد تحدر من عيني وقد قرأت

كتاب منعاه دمع قطره سخنا

إذ فارقته قريباً إذ يقول لها

لما دعته ذريني العبن هنا

إذ كان يلعب حراً إذ تربص لل

عصفور إذ خلفه صل الردى كمنا

يا للأقدار!!

كاد يسيل دمعي وأنا أقرأ في (مرثية بعد قرابة خمسين عاماً لطفل اسمه حسن) في هذا الديوان الذي بين يديك أيها القارىء الكريم :

مات والأهل جميعا في فرح

بختاني - حسن لم يختتن

مات في يوم كمن

شبح الموت له في الملعب

جره من يده قدامنا نثلا بدائياً وقح

لم يتح لي منه إلا حسوات

شعشعتني ثم أهريق القدح

أين حسن

أين حسن

قال تعالى: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة». وأقرأ «دعاء الطفل المظلوم»، فهي مرثية للشفيع، رحمه الله، جعلها دعاء ابنه المظلوم:

يتيم من الضيم يبكي بكى وهو عارف

بكى رافعاً يده رافعاً صوته غير خائف

بكى قبل ان يتعلم إلا حروف كلمة بابا

يرددها وهو ينظر بابا

مضى الجند منه وفيهم أبوه

الى غير رجعة

يردد ما ليس ينسى

وفي العين دمعة

رحمهم الله جميعاً ـ ونسأل الله العفو والرحمة والغفران، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

عبدالله الطيب

١٢ من جمادى الأولى سنة ١٤٢٠هـ

٢٣/٨/١٩٩٩م



الاهداء

يا شــراعــاً ممــزقــاً في البــحــارِ   نهــشَــتْــه الرياح حــتى الصّــاري

كنـــتَ مَــنْ تحــمِلُ الأعــاصـــيرَ   كفاه، فكيف استسلمت للإعصار

عرفته ـ أول ما عرفته ـ في ساحة العمل الثوري

كنا آنذاك دون العشرين، يحلم هو ـ مثلما كنت أحلم ـ بيوم خلاص الشعب من المستعبد الأجنبي، ويوم تخفق راية اشتراكية حقة تقضي على الأنانية والجور وينعم بها البائس والمحروم.

له سمْت راهبٍ مُتَبتِل زاهد مُتجرد، ولكنه كان في مخبره مناضلاً جسورا.. وكان شعره بعض جني نضاله.. وعطاء يزين به عطاء.. اغنيتنا التي نترنم بها:

فمشيت في القيد الثقيل وثرتُ ثورة كاسرِ

أنا ابن هذا الشعب ابن شقائه المتكاثرِ

والشعب لو شاء الحياة مشى بخطو الثائرِ

وكان يحلو له أن يردد بيت شاعرنا التونسي ابي القاسم الشابي ولكن هكذا:

السعيد السعيد من كان مثلي   في حساسيتي ورقة نفسي

فاذا بهذا البيت ـ كما جاء اصلاً ـ يسخر بهذا التغيير الذي أدخله عليه شاعرنا، واذا به ينتحر شقياً من جراء حساسيته ورقة نفسه ونقائه.. وذلك في أخريات عمره القصير القصير.

فيا أخي «محمد عبد الرحمن شيبون»، الذي أسميتَ نفسك في النضال السري «فاضل» ولقد كنت كذلك..

ستظل ذكراك باقية ما بقينا، وما بقيت بعض كلماتك، وما بقي شعب أحببته وأوقفت ليوم خلاصه النهائي أيام عمرك النفيسة، أحلى أيام عمرك.. وقد كنت تملك لو شئت أن يكون لك شأن آخر من منصب وجاه ونعماء كما هو حال كثير من شباب جيلك لولا الأنفة والحمية والسمو والغرض الرفيع.

جيلا يتلوه جيل، ويبقى نضال الشعب العظيم في سبيل تحقيق نفس ما كنت تحلم به له، وما حفيت وما جعت وما شقيت وما أعرضت عنه في تعفف وزهد في سبيله.. ثم يبقى الشعب بعد ذلك مُلهماً لأبنائه البررة، ما ظل شعب يلهم، وما ظل أبناء بررة يستلهمون.

فرقتنا طرق الثورة والمعرفة على أن أياً منا لم يتبدل ولم ينس العهد الذي قطعه مع نفسه ومع الشعب تحت شجرة الرضوان. ولئن لم تتزعزع ثقتك بي رغم البين المشت، فما كان أحرى بك أن تمد من تلك الثقة قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه، فلربما وضعنا من جديد يداً على يد في طريق جديد والغاية هي هي. وقد يكون هذا نفسه عين ما خطر لك من عتاب لي دون أن تجد فرصة بثه قبل أن يسبق السيف العذل.. حتى سمعت ذات يوم كئيب انك غادرتنا الى غير رجعة في صمت وفي حياء وفي نبل.

فقد اكتشفت ان تناقضات الحركة الثورية مع نفسها في الداخل، أكبر من التناقضات التي كانت تسعى الى حلها خارجها، واذا بتلك تنعكس تناقضات أكبر في نفسك الشاعرة الأبية المرهفة، مما حدا بك لكي تتخذ قرارك الرهيب في ساعة ضعف أو قوة. ولكن بشجاعة نادرة لا يملك مثلها إلا مثلك.

فإليك اذن يا شيبون.. «شيبون حنجرة الشعب، صوت بلادي الغني المثير».. والى ذكراك الخالدة..

والى شعبك الذي أحببته حب من عشق، حباً قميناً بأجلّ التضحيات وأغلاها..

أهدي هذه المجموعة التي لا تليق بك ولا تليق به في تواضعها، لا

يبـررها علىٍ عـلاتهـا غـير ذلـك الحب الذي اوقفـنا له انفـسنا، والذي يقف صادقاً خلف كل كلمة من كلماتها الصادقة.

فـأليك يا أخـاه.. إليك أيها الـذي قـدم الينـا من «كـردفـان» ذات يوم بالحب الثوري العظيم، والموهبـة الواعدة ليتمدد مـسجى بعرض الوطن وطوله، مكفنـاً بإخـلاصـه وولائـه ووفـائـه وصـدقـه ووطنيتـهُ ومُـثُله التي كانـت سلوكا وعـملا..

إليك مـن رفـيق يقف الـيـوم وحـده لا تظلـه راية غـيـر راية الحـقـيـقـة والثورة.. و... اواه من وحشة الدرب وطول الطريق...

صلاح أحمد إبراهيم



«حنتوب» شاعر وشعب

هدهدٌ حطّ على كتفك يا «حنتوب» كالحِلم نبيلا[1]

أنبت الشعر له تاجاً من العزة كالحُلم جميلا

ساحباً ذَيلاً من الريشِ على مرْج قوافيه طويلا

وانطوى

ساهِماً في النجمة القُصوى يُناجيها ويدني المستحيلا

بترانيم الجوى

ثم أصغى لمنادٍ في الدُجى : حيّ على خير فلاح

فسَرَتْ فيه انتفاضه

وطوى

ذلك الماضي حيال الطور من وادي طُوى

إذ تجلّى الشعب في نورِ الكفاح

نافخاً في خافق الشاعر ناراً ورياح

وقوى .

***

---

(1) ألقيت في احتفال مدرسة «حنتوب» الثانوية بعيدها الفضي، أمام النميري وضيفه «المستر براون» الذي كان ناظراً للمدرسة أيام الاستعمار الانكليزي . . وعلى يديه فصل الشاعر وصديقه «شيبون» وآخرون لنشاطهم الوطني .

كان « شيبون » صموتا

كان غاباً ملؤه الثوار يخفون سلاح

كان ليلاً عبقري البوح مشحوناً صباح

قلبه كالوردة الحمراء دامي الانفتاح

بجراحٍ، فجراحٍ، فجراحٍ، فجراحْ

كان « شيبون » مع ذلك إنساناً بسيطا

كان ريفي

كان كالسيل وكالظلِ الوريفِ

قال لي فوق ندى العُشبِ الخريفي

والشعابين لها نحو الصديقين التفات(٢)

تحت تلك العُشَرات:

« يا صلاح..

مـا حـيـاتي أنا ضـيّـعـتـهـا	دون أن أبنـي بنـاءً للغـد
أنا إن عـشـتُ وشـعـبي مُـرهَقٌ	مـسـتـغلٌ ثـم لم أمـدُدْ يـدي
لصـراع الظالم المسـتـعـبِـد	وكـفـاحَ المسـتـغِل المُعـتـدي
فـأنا لسـتُ بانسـانٍ لـه	عـيـدُ مـيـلادٍ، أنا لم أولد

هكذا غنّى « كمال » (٣)

فلنفجّر شعرَنا فوهةَ بركان نضال »

واستبقنا، فعدا نحو عصيٍّ الشعر في حزمٍ فراضه

مسمِعاً في هدأة الليلِ صهيله

مُمسكاً في كفه تلك النحيله

عُرْفه القاني..

معاني..

في مضامير الخيالْ

***

كان « شيبون » له الشعر خميله

وله الشعب قبيله

بقريضٍ طينُه من حرٌ « شيبون » قُراضه(٤)

وضميرٍ لم يذقْ ـ والشعب في السبيٌ ـ اغتماضه

وبقلبٍ كحجيجٍ مُحْرِمٍ عند الإفاضه

خالصٍ، في مزريات لم يُدنَّسْ

جمرةٍ من غضب الحق المقدس

فارساً منا، ولكن كان في الميدان أفرس

كان « شيبون » ولكن.. أعطش الحمقى رياضه(٥)

***

نتعزى بأمانينا، وبالشعب، وبالشعر فنشدو ونُطيل:

لا علينا أيها النيل.. لقد كانت مخاضه

نحن صرعى الحب يا نيل، وفي الحب التياعٌ ومضاضه

قد عشقنا شعبنا يا نيل، هل في عِشْقِنا الشعب غضاضه!

فاذا نحن على قارعة الدربِ صعاليك..

لنا التقريع والنكران شراً ونكال

فاقبلي يا نائبات الدهر إنّا لك أنداد قتال

***

هاتِ لي الإبريق والكأس ودعني أتغَنّى

إن بي شوقاً الى القافية الحسناء كالصهباء أدنيها لكم دنّاً فدنّا

إن بي شوقاً الى الشعرِ الذي احمله رُمحاً طويلاً ومجنا

إن بي شوقاً الى لهبة مصباحي إذا ما الليل جُنَّ

وإذا الباغي تجنّى.. لسلاحي، لسلاحي

***

يا رئيسُ الشعبِ أولبناكَ والشعب الثقه

قمت للثورة والثورة نار محرقه

إنما الثورة تدبير، وفكر، وإراده

وهي إلهام، وإلهاب، وحشدٌ وقياده

تخلق الأمة لا الحكم، وشورى لا سياده

ومبادي..

والأعادي

نصبت فخاً وظلت محدقه

في الدياجي المطبقه

وبنو قومك في الظُلمة اسراهم وأنت البارقه

وانفراج الضائقه

شعبك الجائع يرجوك، ومَن حولك في الخرطوم يرجون استفاده

عقموا جهلاً وعاده

طردونا.. وعبرنا النيل للمجهولِ ابناءَ سبيل

نرقب البرج على بعدٍ، وموج النيلِ، والشطِ الجميل

كشموسٍ وجَمت عند أصيل

نتعزى بأمانينا، وبالشعر، فنشدو ونطيل:

لا علينا أيها النيلُ، لقد كانت مخاضه

نحن صرعى الحب يا نيل، وفي الحب التياعٌ ومضاضه
قد عشقنا شعبنا يانيل، هل في عشقنا الشعب غضاضه؟
فاذا نحن على قارعة الدرب صعاليك..
لنا التقريع والنكران والذم نكال
فاقبلي يا نائبات الدهر إنّا لك أنداد قتال.

***

هات لي الأبريق والكأس ودعني اتغنّى
إن بي شوقاً الى القافية الحسناء كالصهباء أدنيها لكم دنّاً فدنا
إن بي شوقاً الى الشعر الذي أحمله رمحاً طويلا ومجنّا
إن بي شوقاً الى لهبة مصباحي إذا ما الليل جُنّ
واذا الباغي تجنّى
لسلاحي.. لسلاحي..(٦)

***

يا نَبات الغدِ من «حنتوب» مني لكم أزكى تحيه
شاعرٌ حمّله الشعب أمانه
أنتم الثورة والثورة إنكار لذات
وتلاشٍ في قضيه
وأملْ
ناءَ شعري بالذي كان حَمَل
من رزايانا، وأبياتي في المهدِ صبيه
حينما قدّمت نفسي ولذاذاتي هديه

وتقضّى العمر الا سنوات

وانا لا زلت جندياً وفي قلبي حميّه

وتحدٍ ونضال

فاقبلي يا نائبات الدهر إنّا لك أنداد قتال.

---

١) كانت «حنتوب» وما تاخمها من ضفاف نهر «الرهد» تعج بالهداهد، في فصل الخريف بخاصة، ومنها اتخذت المدرسة شعارها في قمة البرج الذي يتوسط مبانيها.

٢) اسس الشاعران وثالث أولي خلايا العمل الثوري في المدرسة، وكانت تعقد الاجتماعات وسط الحشائش المتعالية وشجيرات العُشر والتنضدب حيث تكثر الثعابين وغيرها من الهوام وقد قتلت الطالب «جعفر» بلدغة خلال احد تلك الاجتماعات وقد كتب صاحب المجموعة عن ذلك قصة بعنوان «م. ط» نشرتها الصحافة السودانية.

٣) الشاعر محمد كمال عبد الحليم، الشاعر الثوري المصري الرائد، والذي يَدين له الكثيرون بالوعي الذي بثه من خلال شعره، لاسيما ديوانه «اصرار» ويحتفظون له بالإعزاز والتقدير والمحبة والامتنان.

٤) إشارة لذهب «شيبون» العزيز في السودان والخالد في تراثه الشعبي ولا ادري إن كان شيبون لا يزال ينتج ذهبا.

٥) انتحر الشاعر «شيبون» وهو لا يزال يحترف العمل الثوري لمضايقات من بعض رفاقه الحزبيين.

٦) حذفت أبيات خاطب فيها الشاعر «نميري» منها:

شعبك الجائع يرجوك، ومَن حولك في الخرطوم يرجون استفاده

عفنوا جهلاً وعاده

واحابيل مُعاده

وخيانات عهودٍ لم تصر بعدُ مُباده

.كن مع الشعب، فان الحكم للتاريخ في الآخر، والفعل الشهاده

كن مع الشعب..... الخ.





نحن والردى

كانوا يتساقطون واحداً إثر واحد دراكاً، بعد حياة كُرِّسَتْ لمحبة الناس، وإسعاد الناس، وكفِّ الأذى عن الناس، في صمت وإنكار ذات. فعمَلُهم اليومي وطنيةٌ وعبادة، وحياتهم العادية بطولةٌ وتضحية، ومصائرُهم موصولةٌ بمصير الشعب.

ياذكيُّ العودِ بالمطرقة الصمّاءِ والفأسِ تشظّى
وبنيرانٍ لها ألفُ لسانٍ قد تلظّى
ضُعْ على ضوئِك في الناس اصطباراً ومآثرْ
مثلما ضُوِّعَ في الأهوال صبَراً آلُ «ياسر»
فلئن كنتَ كما أنتَ عبِقْ
فاحترقْ!

***

يا منايا حوّمي حول الحمى واستعرضينا واصْطفي
كلّ سمح النفس، بسّامِ العشياتِ الوفي
الحليمَ، العفَّ، كالأنسامِ روحاً وسجايا
أريحيَّ الوجه والكفِّ افتراراً وعطايا
فإذا لاقاكِ بالبابِ بشوشاً وحفي



بضميرٍ ككتابٌ اللهِ طاهرْ
أنشُبي الاظفارَ في اكتافِه واختطفي
وأمانُ الله منّا يا منايا..
كلّما اشتقتِ لميمونِ المُحيّا ذي البشائرْ
شرّفي
تجدينا مثلاً في الناس سائرْ
نقهر الموتَ حياةً ومصائرْ
***
هذه اجنابنا مكشوفةٌ فليرمِ رامي
هذه أكبادُنا.. لُكْها وزغرد يا حقودْ
هذه أضلاعُنا مثلومةٌ وهي دوامي
وعلى النُطع الرؤوس
فاستبدّي يا فؤوس
وادخلي أبياتنا واحتطبي
وأديري يا منايانا كؤوساً في كؤوسْ
من دِمانا واشربي
ما الذي أقسى من الموتِ؟ فهذا قد كَشفْنا سرّه، وخَبَرنا أمرَه
واستسغْنا مُرّه
صدئت آلاتُه فينا ولا زلنا نُعافرْ
ما جَزِعْنا إن تشهّانا ولم يرضَ الرحيلْ
فله فينا اغتباقٌ واصطباحٌ ومَقيلْ
آخرُ العمرِ، قصيراً أم طويلْ:
كفنٌ من طرفِ السوقِ وشبرٌ في المقابرْ



ما علينا . . إنْ يكن حزناً فللحزنِ ذُبالاتٌ مضيئه

أو يكن قصداً بلا معنى فللمرءِ ذهابٌ بعد جيئه

أو يكن خِيفةَ مجهولٍ فللخوفِ وِقاءٌ ودريئه

من يقينٍ ومشيئه

فهَلُمّي يا منايانا جحافلْ

تجدينا لك انداداُ المحافلْ

القِرى منا وفينا لكِ، والديوان حافِل

ولنا صبرٌ على المكروهِ - إن دامَ - جميل

***

هذه أعمالُنا مرقومةٌ بالنورِ في ظهرِ مطايا

عَبَرت دنيا لأخرى، تستبقْ

نفدَ الرملُ على أعمارِنا إلا بقايا

تنتهي عُمراً فعُمرا

وهي ندٌّ يحترق

ما انحنتْ قاماتُنا من حِمْلِ أثقال الرزايا

فلنا في حَلَكِ الأهوالِ مَسْرى

وطُرُق

فإذا جاء الردى كَشَّرَ وجهاً مُكْفهراً

عارضاً فينا بسيفٍ دمويٍّ ودَرَق

ومُصرّا

بيدٍ تحصُدنا لم نُبدِ للموتِ ارتعاداً وفَرَقْ

نترك الدنيا وفي ذاكرةِ الدنيا لنا ذِكرٌ وذكرى

من فِعالٍ وخُلُق



وغداً يحملنا أبناؤنا كي نستقي
فالذي تُخلي له مَضْيَفةُ الدنيا سيُدعى لرحيلْ
حين يبدو قادمُ في الأفق
وكلا الذاهبُ والقادمُ في دفترها ابنُ سبيلْ

***

كلُّ طفلٍ جاء للدنيا أخي من عدمِ
مشرقُ الوجْنةِ ضحّاك الثنايا والفمِ
يُسْرجُ الساعاتِ مُهراً لاقتحامِ القممِ
سابحاً في نشوةٍ للهَرَمِ
فإذا صاح به الموتُ أقدمِ
كان فوتُ الموتِ بعضَ المستحيلْ
عجبي من رِمةٍ ترفلُ بين الرممِ
نسيَتُ سوءَ مآلِ الأممِ
وسَعَتْ في باطلٍ عُقباهُ غيرُ الالمِ
ومُطيفِ الندمِ
والسأمِ
غصةُ الموتِ، وان مُدَّ لها في فسحةِ العمر قليلْ
فالذي يعقبه القبرُ، وإن طالَ مَدىً ليس طويلْ
والسؤال الحقُ: ماذا بعدُ، ماذا بعدُ؟ ماذا بعدُ في هذا السبيلْ
يرتجيه الآدمي؟
أإذا متنا انتهينا للأبد
غير ما يَمسِكُ دهرٌ أو طبيعهْ
أم بدأنا من جديد



كيف أو أين سؤال هائل لن نستطيعَه
أفَمَن يذهبُ عنّا سيعودْ
مثلما تزعمُ شيعه
ثم هل عاد أحد؟
أم له في داره الأخرى خُلودْ
بعد أن يسترجَع الله الوديعهْ
بكتابٍ وأمدْ
ضلّ من يبحث في سر الوجود
بالذي أنكر أو فيه اعتقد
فاجعل الموتَ طريقاً للبقاء
وابتغِ الحقَ شريعه
واسلكِ الفضلَ وقل يا هؤلاء
خاب قومُ جحدوا الفضل صنيعه
إن للفضل وإن مات ذووه لضياء
ليس يخبو ـ فاسألوا أهل النهى
رُب ضوءٍ لامعٍ من كوكبٍ ـ حيث انتهى
ذلك الكوكبُ آلافاً وآلافا سنينا

***

يا رياحَ الموتِ هُبي إن قدرتِ اقتلعينا
اعملي أسياخك الحمراء في الحي شمالا ويمينا
قطّعي مِنا الذؤابات ففي الأرض لنا غاصت جذور
شتتينا، فلكم عاصفةُ مرّت ولم تَنسَ أياديها البذور
زمجري حتى يبُحَّ الصوتُ، حتى يعقبَ الصمت الهدير



اسحقينا وامحقينا

تجدينا.. نحن أقوى منك بأساً ما حيينا

وإذا متنا سنحيا في بنينا

بالذي يبعث فيهم كلٌّ ما يبرِقُ فينا

فلنا فيهم نشور

***

طفلنا حدّق في الموتِ ملياً ومرارا

ألفَ الأحزانَ تأتينا صِغاراً وكبارا

ومَرَى الدمعَ غزيراً، ورعى النوم غِرارا

ورأى والدَه يخطرُ للموتِ ونعشاً يتوارى

لن يراه مرةً ثانيةً قطُّ إلى يوم الحساب

ذاكِراً عنه حناناً وحديثاً وابتسامات عِذاب

كشموسٍ لا يني يأملُ أن تشرق من بابٍ لباب

كل يوم ولنا في البيت مأتم

وصغير ذُبحت ضحكتُه يومَ تيتم

كلما مَرتْ بِنا داهيةٌ تسألُ عيناه عن الشرِ المُغير

ويرى من حولِه أمراً مريباً وغريباً ورهيباً فيثور

أمه في جَلَدٍ تدعوه أن يَسكُت لكنْ صوتُها فيه اضطراب

واكتئاب.

ومغاريقَ غضاب

وهو يدري فعيونُ الأم للإبن كتاب

وهو بالمحنةِ والموتِ الذي جندلنا جدُّ بصير

حلمُه صار حكيماً وهو طفلٌ في سريرْ



فهو يزدادُ بما حاقَ بنا حُزنا وحزْماً ووقارا
وانفعالاً كلما عاثَ بنا دهرٌ وجارا
هكذا يُطرقُ فولاذُ البطولاتِ ويُسقى بالعذابْ
فلهُ في غدهِ يومٌ كبيرْ
يوم أن يَدلجَ في وادي طُويً يطلبُ نارا
والِجاً هَوْلاً مهولاً، خائضاً نقعاً مُثارا
وغمارا
ضاحكاً في حنكِ الموت على الموت عُتَواً واقتدارا
وقد استل كسيْفٍ بارقٍ جُرحاً عميقاً في الضميرْ
خبّراني، لهفَ نفسي:
كيف يخشى الموتَ من خاشَنَهُ الموتُ صغيرْ
***
في غدٍ يعرف عنّا القادمون
أيَّ حُبٍ قد حَمَلْناه لَهُمْ
في غدٍ يحسبُ منهم حاسبون
كم أيادٍ أُسلفت منا لهم
في غدٍ يحكون عن أنّاتنا
وعن الآلام في أبياتنا
وعن الجُرحِ الذي غنّى لهم
كل جُرحٍ في حنايانا يهون
حين يغدو رايةً تبدو لهمْ
جُرحُنا دامٍ، ونحن الصابرون
حزننا داوٍ ونحن الصامتون

فابطشي ما شئت فينا يا منون
كم فتىً في مكةٍ يشبه حمزة؟
***
بالخشوعِ المحضِ والتقديسِ والحبِ المُقيم
واتّضاعٍ كاملٍ في حضرةِ الروح السماويِّ الكريمْ
التحياتُ لها..
وبعشقٍ أبديٍّ عارمٍ ينزفُ من جرحٍ اليم
وامتنانٍ لا يفيه قدرَهُ قولٌ ولا فعلٌ، حديثاً أو قديم
التحياتُ لها.
ليتَ لي في الجمرِ والنيران وقفهْ
وانا أشدوا بأشعاري لها
ليتَ لي في الشوكِ والأحجارِ والظُلمه زحْفه
وانا اسعى بأشواقي لها
ليتَ لي في زمهريرِ الموتِ رجْفه
وانا الفظ أنفاسي لها
ليت لي من ألمٍ طاغٍ مَحقَةْ
وانا أحملُ قرباناً لها .. وهديه
فانادي بإسمها الحلو بلهفهْ
لكِ يا أمَّ السلام.
والتحية
وجبيني في الرَّغامْ
التحياتُ الزكياتُ لها، نفسٌ زكيّه
رسمُها في القلبِ كالروضِ الوسيمْ

صنعتنا من معانيها السنيه

وستبقي منبعَ النورِ العظيم

يا قبوراً في عراءِ الله، حسبُ البشرية

إنكم من ذوقِها العالي صميمْ

سنوات عشتموها أينعت

حُقُّلا بالخير والحب الحقيقي

ومضيتُمْ فتركتم أثراً

نَبْشَ إسماعيلِ في القَفْرِ السحيقِ

يا أحبائي ويا نبضَ عروقي

كنتم القدوةَ بالخيرِ الوريق

فاهنأوا، نحن كما أنتم على ذات الطريق

***

رُبَّ شمسٍ غَرُبتْ والبدرُ عنها يُخبرُ

وزهورٌ تتلاشى وهي في العطر تعيش

نحن أكفاءُ لما مرَّ بنا، بل أكبرُ

تاجُنا الأبقى وتندكّ العروشْ

ولمن ولّي حديثٌ يؤثرُ

ولمن ولّى حديثٌ يذكرُ

إطلعتُ على هذه القصيدة «نحن والردى» منذ بضعَ عشرة سنة، زماناً في عهود السبعين العجاف، قرأتها، مرة ومرة ومرة، فإذا كل تارة بريقها جديد، وهي على حزنها الشجاع قصيدة متفائلة، ولقد احتفيت بها احتفاء كبيرا، كنت عَصرئذ اشرف على تحرير الملحق الثقافي لجريدة (الصحافة) كان فيما اذكر يصدر كل خميس، تحمست لنشرها، أعلنت عنها قبل ايام، أعددنا صفحتي الملحق، جاء الخميس الموعود، لم يظهر الملحق ولا القصيدة، كنت ساذج التأويل، فذاك عهد كان فيه أقلُ كلامٍ يُعَدُ للنشر مثلَ تهنئة بختان انجال فلان، او خبر بموت علان يفحصه مسؤول بعد مسؤول الى قمة الهرم التالف.

كان أولو الأمر، وما هم كذلك، أيٌ درجة بلغوا، ينامون بعين ويتّقون باخرى المنايا، ذلك انهم كانوا يُفصّلون

ويُنقَلون و«يُصفَعون» وهم من بعد ذلك في انتظار صبور يرجون فرجاً جديدا، او نزوةً جديدةً من السلطان صاحب السلطة فيعيد صياغتهم الوظيفية، كانوا مثل العلب الفارغة، بانتظار عملية

Recycling قد تجعل المرء بموجبها علبة بيبسي كولا، او مربّى او علبة تمباك! وقبل ان ابلغ الخميس التالي أعفيتُ من الاشراف على الملحق الثقافي «ادّوني حِسابي».

وضاعت القصيدة بين التنقل والاضابير، بحثت عنها كثيراً، لحين ان انقذني صديقي الطبيب الحاذق الدكتور الهادي احمد الشيخ، فقدم لي نسخة نادرة منها بخط الشاعر، له من الشكر اجزله، ولعلها المرة الاولى التي تُنشر فيها هذه الدرةُ كاملة.

علي الملك

الشجرة تتكلم

عرَفنا برغم ستارٍ كثيفٍ

من الصمت، رغم صريفٍ

صفيقٍ من الكبْت، رغم حجابٍ مخيفٍ

من الموتِ، والجبروتِ

لماذا.. وماذا.. وكيف

سعينا بكل وسيله

وحيله

لدينا

فإن الحقيقه

حريقه

إذا ابتدأت بالشرار

فليس هناك غطاء، وليس هناك جدار

ولا كَذِبٌ مَستتَار

يحوش الحقيقه

عن الانتشار.

لهذا.. برغم التدابير، رغم دخانٍ كثيف

عرفنا لماذا.. وماذا، وكيف

وحين عَرفنا حقيقه

تجلّت لنا بعدها ألف ألف حقيقه

***

سألنا لماذا.. وماذا..

جمعنا النثار

تبعنا البداية نحو البقيه

وضعنا اللقيّه فوق اللقيّه

قلبنا لأَجْلِ حصاةٍ بحارْ

غطسنا عميقاً جَمَعنا المَحار

وجدنا بعيداً وراء «الحزام»

عظاماً هنا وهناك.. عظام

آدميّه

وبعضَ الذي انثال من بندقيه

رسالةَ نار

بقايا عيار

من الفتكة الهمجيه

أزلنا الصدأ.. ونفضنا الغبار على بصمة في الشظيه

سألنا ملياً..

لرُبع إجابه..

ونِصفَ إجابه..

فكلّ الاجابه..

رصدنا معارفنا بالدقيقه

أعدنا بناء الحقيقه

عرفنا لماذا وماذا . .

***

وأشنع من ذاك كَيفَ . .

وكيفَ تفاصيلُ هولٍ بشِعْ

أنيناً سمعناه من غير أن ينسَمِع

مرايا اصطبار

على ألمٍ ماحقٍ مجتمع

تكرّرُ أخيلةً للسُّعار

جراحاً جراحاً، نزيفاً نزيفَ

وركلاً عنيفَ

وبغياً منيفَ

لما لانهاية

بذات الغرار

جنون الجريمهْ

وأمجاد ذعر العقول السقيمهْ

وقد أفقد الطيش فرعون صوابه

فسلّط في حَمَق مستبدٍ عذابهْ

وأطلق من كل صوّبٍ ذئابه

رأينا الذي تمّ بالضبط في يوم صيف

عرَفنا تفاصيل جدً دقيقهْ

كما كتموه وراء ستورٍ صفيقهْ

عرفنا الحقيقهْ

لماذا.. وماذا.. وكيف

فلا حرمةٌ أو حرامْ

شريعةُ غابهْ

وجبنٌ لمن أوثقوه يكشّر نابهْ

ومحكمةٌ في العراء تُقامْ

موازينها النكايةُ والانتقامْ

رأينا العدالةَ مهتوكةَ القدسيّةِ داخلَ خيْمهْ

ووجهُ الحقيقة دامٍ بمديتهم صَلّبوهْ

رأينا الكرامة ذاهلةً ثوبُها مزّقوهْ

وعِفّتُها في الرّغام

رأينا زبانيةَ الموت في ساحةٍ ركَلَتْ بالقَدَم

آدمياً على الارض لجّ ألم

وجههُ في احتقانٍ دماً وورم

رأينا زبانيةَ اللّعِبِ الدَمَويّ.. المُسُوخَ القميئهْ

وفيهم حَكَم

تقافزَ يأمُرُهُمْ بعذابٍ وموتٍ، عذابٍ وموتٍ، عذابٍ وموت

وخارجَ خيْمه

رأينا التعسفَ والجبروتَ

له وجهُ عاهرةٍ بالمعاش

مُكَرْمشةٌ نهضتْ وهي مخمورةٌ من فراشْ

راكضاً وهو يُصدرُ أحكامَه:

أعدِموهم (مع كلماتٍ بذيئهْ)

وقاضٍ بلا ذمةٍ يُؤمَرُ

وفي ذلة يمهَرُ

بلا بيّناتٍ ولا شاهدٍ يحضرُ

وقُدّامَه

نازفٌ في وثاق

ثوبُه اغبرٌ أحمَرُ

بجراح دهاقٍ

جرّ آلامَهُ

واقفاً في ثباتٍ

يُواجِه إعدامَهُ

***

عرفنا الحقيقه

فمن يُنكِرُ؟

عرَفنا وفينا الذي يَذْكُرُ



وقائع شنق مناضل

الى الشفيع أحمد الشيخ – يا من كنت قائدا لعمال بلادنا.. وقائداً لعمال العالم..

وليس لانك زوج فاطمة وأبا أحمد، ولا لانك شرفتنا شرفاً كبيراً حين قرنت إسمك الوضيء بنا..

ولا لأننا حين عاشرناك واحداً منا، افضْتَ علينا سماحةً ونبلاً وأريحيةً.. دخلت علينا كالنسيم وما ذهبت الا للمجد والخلود..

ولكني.. لانني ذات يوم، وكان معذبوك وقاتلوك آنذاك لاهين عن هموم الشعب وقضية تحرره من قبضة الاستعمار، وكنت انت خارجاً لتوّك من سجنك في جبل مكرام، وعمال بلادنا محتفلين بك في مهرجان كبير.. مهرجان خروجك من سجن آخر.. وقفتُ امامك طالباً دون العشرين اقول فيما قلت:

يا شعب إنْ أبدى الجبان خنوعا   لا تيأسنّ فقد ولدت شفيعا

أنجبته وغرست في أعماقنا   حبا تمكّن واستطال فروعا

حيّ الشفيع وحيّ كل مناضل   عرف الطريقَ السجن والتجويعا

فمضى وصوت الكادحين يشده   ليخُطَّ فوق صخوره توقيعا

قسماً بعزمك يا شفيع بأننا   لن نستكين ولن نخر ركوعا

قسما بعزمك يا شفيع..

وها أنا أجدد لك القسم.. باكثر حماسة وايماناً..

إسمه أول القائمه

دعته اليه المنايا.. رجوناه.. لكنه خاف من قول خاف

كان واجبه ان يجيب

«كسقراط» يجرع سماً زعاف

و«عيسى» عشية يوم الصليب

رجوناه.. جاشت على ثغره بسمة كالحليب

ألا تختفي يا «شفيع»(١)

أجابت مهيرة رافعة سيفها

وصوت بنونه والدم حناء في كفها؟

وأخت امام تزغرد تحت

وثوب الزفاف

***

هبْ ودعنا مُعرِضا

شدّ قامته ومضى

لم يعد من هناك

وكان يدرك ذاك

.. تحمل تعذيبه في شموخ، وفي كل شبر جراح، وفي كل جرح لهيب
ولما اكتفوا علقوه على القائمه
وهو ينظرهم بثباتٍ
حوله جذلين، ذباباً يحك يداً بيدٍ، وكأن لم تكن في الحياة عظات
وجاء طبيب
جسّ نبض يدٍ زادت الذل عنه وغمغم.. مات!
.. وفات
دفنته المساجين سراً، كما يدفنون الشقيّ الغريب
كما تدفن النَكرات
وآبوا.. وسجانهم
لسجن عتيد
وجهه من حديد
وأموا زنازينهم.. لسُبات
..... سوى طيف قبر جديد
يزعزع أحلامهم، اودعوه الشهيد
***
ولّما تزل روحه حائمه
ترفرف في الهمم النائمه
***
سار للموت رزينا
كان يدري إنه ماشٍ إليه
رأسه يشمخ عالي...
يتحدى.. هكذا من يتصدى.. للمعالي

مات ضمآن طعينا .. والبطولات عوالي
فهو ما زال دفينا
في الرياح المُعْوِله
هامساً فيها وفينا لعهود مُقبله
***
أيها الجلاد شدّ المقصله
أوَ تدري أي رأس ستطيح!!
أنت أتممت فصول المهزله
ناقشاً إسمك بالفعل القبيح
وعداً يذكر الناس مِراراً ومرارا
ومع إسمك لعنه
يا جريح
لم يَعُدْ في جسمه موضعَ طعنه
في نهار
سار حفياً بالردى
فيه من إطلالة الفجر ندى
واحمرار
عشت كالنسمة، لكن صِرتَ ريح
أفَمِسكٌ، أم دم في الجام أم جمر ونار
وشرار...
وبعرض الشفق المنذر أعقاب الدجى الفجر جريح
نازفاً في جنبه حربة غادر
وبعينيه أسى مثل المسيح

رُبَّ ليل صار للبنت ضفائر

جفنها غائر

ولكن طرفها منه كحيل

أنهضت في جسمها النزر النحيل

كجبال الهند من ثارات ثائر

خرّ كالنجم قتيل

حملته الريح في ساعدها وهي تنوح

سرجه خالٍ وللخيل صهيل

وهي في الغفر نوافر

وإلى الارض نـــواظـــر وبِرُكنٍ معتم في الحي تلقى

رمـحـه المـكسور ملقى وعلى السوح الخليات الرماد

قتلوه دون شاهد

دون شاهد

دون شاهد

قبره من دون شاهد

دون شاهد

دون شاهد

واذا قاتله المعتز وفي الصدر حديد وصفيح

وسيور . . وقلائد

يذبح الأطفال والناس حواليه تشاهد

بعيون لا تشاهد

---

(١) بعد فشل انقلاب هاشم العطا العسكري الذي حدث في يوليو ١٩٧١م، كان الشفيع وفاطمة في منزل شقيقيه منصور والهادي ومعهم الشاعر صلاح ـ فظهر السفاح نميري في التلفزيون وهو في حالة هياج وهلع، واعلن تجريد الشفيع من وسام النيلين ـ وكان الأمر واضحاً والنية مبيتة، فاقترح الحاضرون عليه ان يختفي، وقد جهز له مكان بالفعل، فرفض بحجة ان لا علاقة له بالانقلاب .





دعاء طفل مظلوم

وليدٌ من اليُتْم يبكي

فأين أبوه

أبوه الذي عذّبوه

ودون محاكمة جرّموه

وما سمحوا بدفاعٍ

ولا أذِنوا بالوداعِ

الأخير، ولا بالوُصَاه

ولا أمهلوه

ولكنهم قتلوه..

بأسرعِ ما يُستطاعْ

وفي حفرة الظلم رَموْه..

بغير صلاه

وسووا التراب بأرجلهم..

ومضوْا يغسلون أياديهم.. ونسُوه

ولكن طفلاً تعرّف بالموت قبل الحياه ـ

طفلَه ـ ليس يَنسى

***

يتيم من الضيْم يبكي

بكى فهو عارف

بكى رافعاً يده، رافعا صوته، غير خائف

بكى قبل أن يتعلم إلاّ حروفَ كُلَيْمةِ «بابا»

يرددها وهو ينظر باباً..

مضى الجند منه وفيهم أبوه..

إلى غير رجعه

يردّد ما ليس يُنسَى

وفي العين دْمعَهْ

ويصرخ: «بابا»، و«بابا»، و«بابا»

ولو سمعوه يرددها هدّدوه

وان لم يُطِعْهُمْ تهشّم فُوه

ولو عرفوا أنه يتذكر تلك الوجوه

بكل دناءتها.. قتلوه

***

اتسمع طفلاً من الظلم يبكي

احتجاجاً ولوعهْ

يجمّع قبضته ويتمتم همسا

كليمة «بابا»

يرددها ساهماً وهو يسأل نفسه:

أيرجع «بابا»؟

تهدهده أمه وتهزّ سريره

بـ «نم ياحبيب»

فما عاد عندك «بابا»

فيبكي.. ويبكي.. ويبكي

وليس كأنداده طلباً لحليبٍ

وحاجةِ طفلٍ، وشكوى يخفّ إليها طبيب

ولكن نحيَب..

احتجاجٍ ولوْعهْ

وظلمٌ تقطّر في دمعةٍ بعد دمعهْ

تسيل على خده ذَوْبَ شَمْعهْ

صغيرة

فتصغي إليه السماءُ وتسري بكلّ جلالتِها...

القشعريره

ذكريات عن بابكر النور

كنا معا . . نافورتين من صبا

أراكتين من جبال أركويت غصنين يانعين من أراك أركويت

نقرأ كل اليوم في الجواهري

نقرأ في «إصرار»

نقرأ في سبيل سلمٍ دائمٍ عن انتصار

رفاقنا في بلد لم نره ـ كوريهْ وهي «بخط النار» فنبتهج

***

كنا معاً، نافورتين من صبا

أراكتين من جبال أركويت

نخرج في مهمة فنستميت

نعود بالغبار لِدوْحةٍ يؤمّها رفاقنا جميع

فلا نقول إلا مرحباً

وحَولْنا إخوته صغار

أشبه بالنوّار

نقرأ عِلْما ثائراً وأدبا

تجري شرايينُ صِبانا لهبا

ما قال سلاَمُ أو الشفيع

في موكب العمال في الأول من أيار.. فنبتهج

***

كنا معا.. نافورتين من صبا

يجمعنا صفاء

وثرثرات كحبابِ الماء

غدا نفدي شعبَنا العزيزَ بالمهَج

أنا الذي يموت أوَّلاً.. لا بل أنا.. يرد لا

إذَنْ رصاصةٌ واحدةٌ تصيب قلبيْنا معاً في خندقِ

المقدم بابكر النور عثمان (سوار الذهب)

* احد مؤسسي تنظيم الضباط الاحرار في صفوف القوات المسلحة السودانية

* شارك في الاعداد لحركة ٢٥ مايو ١٩٦٩ واصبح عضواً في مجلس قيادة الثورة بعد نجاح الحركة.

* ابعده جعفر النميري هو والرائد فاروق عثمان حمدالله والرائد هاشم العطا من عضوية المجلس بعد استفحال الخلاف بينهم داخل المجلس.

* اعلنه الرائد هاشم العطا بعد استيلائه على السلطة في ١٩ يوليو ١٩٧١ رئيساً لمجلس قيادة الثورة وكان آنذاك خارج السودان في زيارة خاصة للمملكة المتحدة.

* أجبرت السلطات الليبية طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كان يستغلها في رحلتها الاعتيادية بين الخرطوم ولندن للهبوط في ليبيا وتم اعتقاله.

* سلمه العقيد القذافي بعد فشل حركة ١٩ يوليو ١٩٧١ لجعفر النميري ليعدم.



مناحة جو*

في الجبال العتيقة..

الصدى.. يتعالى.. تناقَلَه الفلواتُ العميقة..

إلى البحر.. للسجنِ.. سجنِ العتاةِ العتيدْ..

تشامَخَ في «الثغرِ»..

يصرخُ في قيظهِ.. والرطوبةُ ملحٌ وأبخرةٌ وصديدْ..

في الجدار العنيدْ

ومن غيظهِ..

يهزّ رِتاجَ الحديدْ

وقضبانَ زنزانةٍ مثل جُحرِ..

وفي قبضتيهِ صراخٌ توالى.. كثاكلةٍ لوليْد

مزّقت ثوبها تنشجُ:

ها هنا باسما..

كان «جو»

يتطلعُ من كُوةٍ للسما..

كان «جو»

كان «جو»

كان « جو »

في الحقول الوريقهْ..

الندى.. يتلألأ.. مع الفجر.. يهمس في خضرةٍ مستفيقه

تموجُ.. لها القنواتُ قلائدُ دُرٌّ.. بجيدْ..

طيوفٌ لِما جالَ في صدر « جو ».. لِمَا جال في بالِه..

وما كان يرجو.. مدى في مدى..

لآماله.. وهي تغدو حقيقة.. غدا

مُحررةً من شقاء عبيدْ..

ومُطلقةً لندا.. بخلاصٍ أكيد..

فيجمع أفوافَ زهرٍ..

تفاوح من حسنها الأرجُ

لحبيبٍ تجرّعَ مُرَّ الردى

جزاءَ تولّهِه والتبتل.. هذي لجو..

من الشعب.. منّا.. لجو..

لجو..

لجو..

***

وراءَ نيالا.. وقضبان شالا.. وخلف السدودْ..

مُويجات « بحر الزراف » تلوّحُ للضفتينْ..

ببطء حزين،

الى غابةٍ وهي تلقي الظلالا..

وتلطم اغصانُها صدرَها

نواحاً يمزّقها وأنين

تنادي وما ملكت صبرها :

تعالَ اليّ فتاي الأمين

تعال . . تعال . .

تعالَ الى حِجْرِ أمّكَ « جو »

« جو » . .

« جو » . .

***

فتى « الجور » سار الى حتفهِ

وفي شفتيهِ هتافُ النضالْ

على وجههِ نبلُ أسلافهِ

يموتون لكنْ بحُسْنِ الفعال

وفي كفّهِ

مواثيقه لرفاقِ الشمال . .

وسار كما النيلُ عند الوفاءِ . . كما سار للنيل « بحرُ الغزال »

ومن خلفهِ

سار عبد اللطيف، وعبد الفضيل ومبيور والقرشي :

لجنة الاحتفال

يقولون : شرّفت أهلاً، بقينا في انتظارك جو . .

هلمَّ، ولكنْ لدينا سؤال :

أهذا جزاؤك والغادر المرتشى

يُعدُّ له الغار، غارُ التآمر، والإنخذال

فلا لا . . ولالا . . وهذا محال

أجودٌ لهم، والجحود لجو؟



لجو؟

لجو؟

يردُّ عليهم ضميرُ الوطنْ

(وانّى لهم شنقُه؟) اوَ ناسٍ فتىً

أخا العقبات، رفيق المحنْ.. فعلُه أبلجُ

مؤتمنْ..

مثل « جو »؟

يشقُّ اليّ صفوفَ العدا

وهم يشهرون عليّ المُدى..

الأجنبيهْ..

يقوّس ظهراً يقيني، يطمئنني في يقينِ:

أيا وطني دمتَ لا دام من مزّقوك

ولا عاش من أنكروك

فنحن بنوك.. ونحن الفدا..

فتىً مثل « جو »؟

فترقص نوّاحة الحيّ بالسيف والدرع تبكيه في حُرقةٍ:

وآهٍ جو..

وآهِ جو..

وتنشدُ شاديةُ الحيِّ في كلِّ عيدٍ يمرُّ على الحيِّ في رقةٍ:

وآه جو.. وآهِ جو

وفي هدأةِ الليل خفقُ فؤادِ

على نوْلِ أحزاننا ينسجُ

وحيداً مراثٍ على قبر « جو »

لقبرٍ ببحري

بلا شاهدٍ فيه أو مَعْلَمِ

بطول البلاد وعرض البلاد.. له فَرَسٌ مُسْرَجُ

يطوف غوادي..

تهلُّ على الأرض بالموسمِ

يبوح بها يانعٌ مُبْهِجُ

بليغٌ بألسنةٍ يلهجُ:

مضيتَ وخلّفتَ فينا أيادي

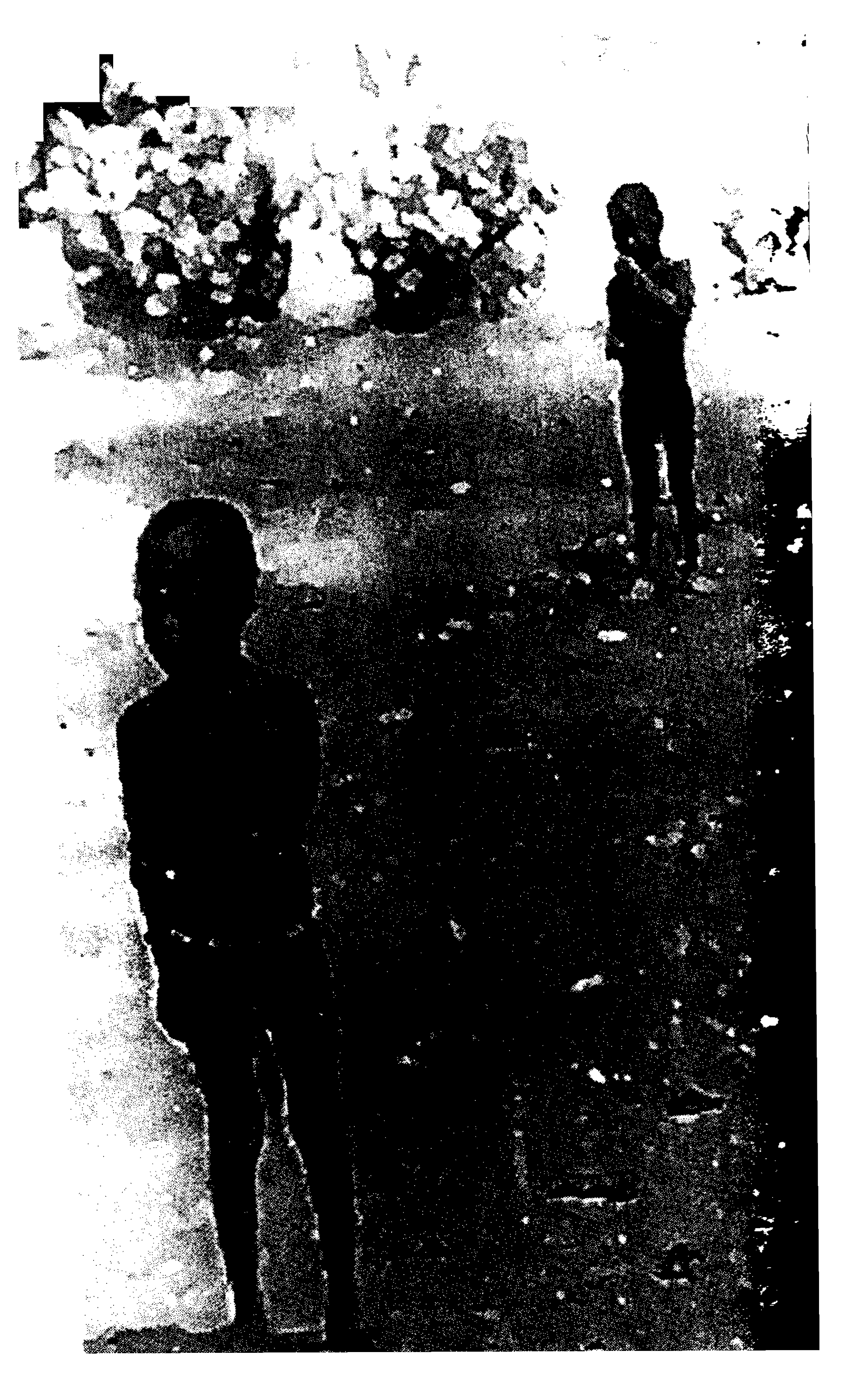
فشكراً لجو..

والخلود لجو..

لجو..

لجو..

* جوزيف قرنق المحامي من أبناء جنوب السودان الشرفاء المناضلين، كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وصديقاً حميماً للشاعر. أعدمه نميري في يوليو عام ١٩٧١ مع قيادات الحزب الشيوعي.





حُلمٌ بكبويتا

هذا هو الحلم الذي رأيته احكيه كما هو، وأهديه بكل حبٍ ووفاء الى ذكرى أنبل من انجب شعب السودان وأبرّ ابنائه به، صديقي الشهيد «جوزيف قرنق»

كانتْ رهينه
والآن حُرِّرت المدينه
من مخلب المتمردين.
ها هي إزائي في غلالاتِ السكينه،
كالمنظر الأخّاذِ من إحدى بطاقات البريدْ
من غير تخطيطٍ، نثارْ
مثل الصناديق الصغارْ
مُلئت بحلوى للصغارْ
ويلفُ كل هديةٍ منها شريطْ.
كمخيّم العطلات في ريف سياحي بعيدْ
جُدُرٌ من الآجُرّ، او مطليةٌ بالجيرِ ـ ابيضَ كالجديدْ
وسقوفُها المحدوْدباتُ مموّجاتٌ:
أرْدُوازاً أو صفائحَ من حديدْ

بتباعُدٍ حَذِرٍ.. كما نهضتْ سفينه،
واختفتْ أخرى بامواج المحيطْ
دَعَةٌ تهادى في مخاملِها خمولْ
ريفيةُ القسماتِ أشبهُ بالحليبِ وبالبقولْ
حيمورُ تربتِها تُوشّعُهُ هنا وهناك أبسطةُ اخضرارْ
ونضارةُ الاشجار تشربُ - ناديات الظلِّ - من شمسِ المدَار
لا حرب، لا فوضى، ولا تذكارَ تدميرٍ ونارْ
القى الجبانُ سلاحَه تواً وأطلق ساقه نحو الحدودْ
لا خوفَ من متسللين، ولا انتشارٌ للجنودْ
طوّفتُ في حُجراتِ مسكنِنا - هدوءٌ ناعسٌ رغم النهارْ
وطزاجةٌ في عتمةِ الظلِّ الكثيفِ وطَمْأنينه -
ظلٌّ لذيذٌ عائلي.
كنا بغير تعارف، شذراً خليطْ
من كان فيه قبلنا بالأمسِ؟
لا أدري، فلا اثرٌ تبقّى بعد كنْسِ
بيتٌ حكوميٌّ، وأحسبه استراحه
فيه بمقياس المدينة جلُّ حاجات النزيلْ
وما يقال عليه في مفهومها المحدودِ راحه
(لله، أين زمانُ شاي صباحنا، أو بسكويت الجنزبيلْ
وعجّةُ البيض الشهيُّ، وخبزةٌ، وشريحتا أسماكِ نيلْ
وكوبُ ليمونٍ تندّى - ابنُ سودانٍ أصيل؟)
في غرفة استحمامنا صابونة عطرية في جانبٍ،
ومناشفٌ في مشجبٍ، والباب من خشبٍ

بدا بدهانه وعلى الجدارْ..
جُدرَى ماءٍ في انتشارْ
في مدخل البيت الصغير جماعةُ الأهلين جمَّعها الفضولْ
بتليدها القبليِّ: تصفيفاً وتشريطاً وهنداماً وزينه
وعلى العيون تراقُصُ البُشرى، ولمعُ تفاؤلِ
وعلى الشفاه الابتسامْ
وكان منظرهم بهيج.
هذي مدينتهم، ونحن ضيوف اهليها «التبوسه»
مَن ذا يروِّج ان في أطباعهم بعضَ الشراسه؟
بلْ ها نعِمْنا في جوارهمُ، وانعِمْ بالجوارْ
***
في غرفةٍ اخرى اجتماعُ مثقفيهم حول منضدةٍ،
كما لو في حوارْ
بالقرب منهم راقداً بطوالهِ شخصٌ شمالي
متظاهراً في ثعلبيّته بغمض جفونه من غير نومْ
متمدّداً بقميصه البلديِّ فوق حبالِ مرقده،
تَسَقَّطَ عن حيالي، ما كان يُلقى من كلامْ
شخصٌ كتومٌ فيه حذْلقةٌ، ويحسب نفسَه بعضَ المُهمّين الكبارْ
ويستفزُّ تساؤلي:
لِمَ جاء من بلدٍ - يلوذ به - بعيدْ؟
دون اضطرارْ
ودون إبراق إليه، أو سببْ؟
هل جاء عيْناً - يا لغفلتنا - وأرسله الخؤون «المستشار»



ذو البسمة الصفراء، و « البيبون » والماضي العميل؟
فيم التلهُّفُ للوصول، وفورَ تحرير المدينه
يطوي المسافاتِ الطويلةَ، من مطارٍ مصطخبْ
وإلى مطارْ؟
وأشحتُ عنه بلا سلامْ.

***

في غرفة أخرى فتىً، ونشيجُ أطفالٍ صغارْ
وامّهم، يبكُون فقْد ابيهمُ، أتراه فارقهم قتيل؟
أم مات ميتةَ ربِّه؟ ذاك الجنوبيُ المهذّبْ
والمهاجرُ من سنينٍ للخليجْ
وذكرتٌ تِصحابي مَعهْ،
عهد الطلبْ
ايامَ سُكنانا معاً في « الجامعه »
« بحرَ العرب »
ومسحت عن خدّي ـ جَوَارِ ـ أدمعه
أولاده متكوّمون بِحجْر ارملةٍ بركنٍ مُظلمٍ. . الا الفتى
كان الوحيدْ
مُترقِّباً مُتلفِّتاً . . بالبابِ ليس له قعودْ
خوفٌ من المجهول ندّ من الأسارير الحزينه
ما زال طفلاً تحت خطّ العاشره
نزْرَ الحديثِ، يجيب في عربية متأثره . .
بسنيٍّ نشأته الهنيئة في الخليجْ
ولدٌ به قِصَرٌ، وهيئته بدينه

بإهابه الحوريّ، والبقعِ التي تعلوه كالعسل النقيطْ
خفيَّةً أو مستبينه
والشَعْرُ في اطرافه صداٌ قليلْ
واقول ما اسمك يا بُنيَّ؟ يقول لي اسمى « تيول »
وأريد أكمل منهجي العربيّ لكن أيْنه؟ ايْنه؟
وفقدتُ بعدُ أبي، أسارع في حنوٍ: « لا عليكَ
أنا أبوك، أنا الكفيل
أرعاكمُ حتى..»
واسمع خلف بابِ البيتِ في باريسَ صوتا
فافقتُ من حُلُمٍ يسافر بي بعيدْ
وزيارةٍ عبرَ الخيال الى « كبويْتا »
غمغمت يا لي! هل صحوتُ به تعيساً أم سعيدْ؟
وطني يحاصره بكلٌ جهاته أهلُ الضغينه
ونظلُّ نحلم رغم ذلك بالتطوّر والاخوّة والسكينه
وهناءةِ الأطفالِ كلّهم بسوادنٍ جديدْ
متحابين، وواعدين، من الحدود الى الحدودْ
يكفي الذي عاناه هذا الجيلُ
تشريداً وتهديداً وتبديداً وموْتى
ومُجاجُ سمٍ دسّهُ كيدُ الدخيلْ
بقلوبنا يهتاج شحناءً ومُقتا
ولُجاجُ منتفعين بالنيران تحفزهم أنانيةٌ
وبيضٌ يختفون وراء تصريحاتِ سودْ

يكفي! يكفي! يكفي
يصيحُ وريدك المنزوفُ يا وطني الشهيدْ
يكفي! يكفي!



قبر حرب

وقبر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبر
تلعثم اللسان .. وضحك الصبيان
وقبر حرب لايزال بمكان يخاف أن يذكره الحفار
وبيت حرب مظلم ليس به من نار
وما له من طائف
يرشقه الصبية بالقذائف
كأنه النبي يوم الطائف

***

يا حبشي مذ قتلت حمزة
الأسد المناجز المغوار
محمد يجول في المدينة
يقول في لوعته المكينة
كل له نواحةٌ تبكيه إلا حمزة
فابكينَ يا بنات يثرب أبكين
والله لأمثلن بالذين مثلوا بحمزة
يا مؤمنين الثأر ثم الثأر ثم الثأر



قبر دون شاهد

يا قبر دون شاهد
يا شاهد
صرت من المشاهد
يا قبرُ في القفر كحملِ مريم
يا قبر يا عالم ما لا نعلم
البطل الأوحد في أضرابه
المدفون في جلبابه
المقتول مرتين بالشمس وفي عذابه
يضج بالآلام تحت الجلد كابن مريم
يعانقُ الموت الذي أحري به
يهتف باسم شعبه
من قلبه
كعاشق متيم
فهل تنام أعين من أغري به ؟

***

يا عطبرة

يسأل عنك أنت

أمت أم ركنت أم جبنت

أم انخدعت بعد حضنه فخنت

لا أجٌ في أحشاء وثبة لهب

إن لم يشب في الشرايين غضب

وما تحرك الحديد من فوق الحديد

ان لم تهبي مثل أمس من جديد

وتزحفي نحو الشهيد بالشهيد

***

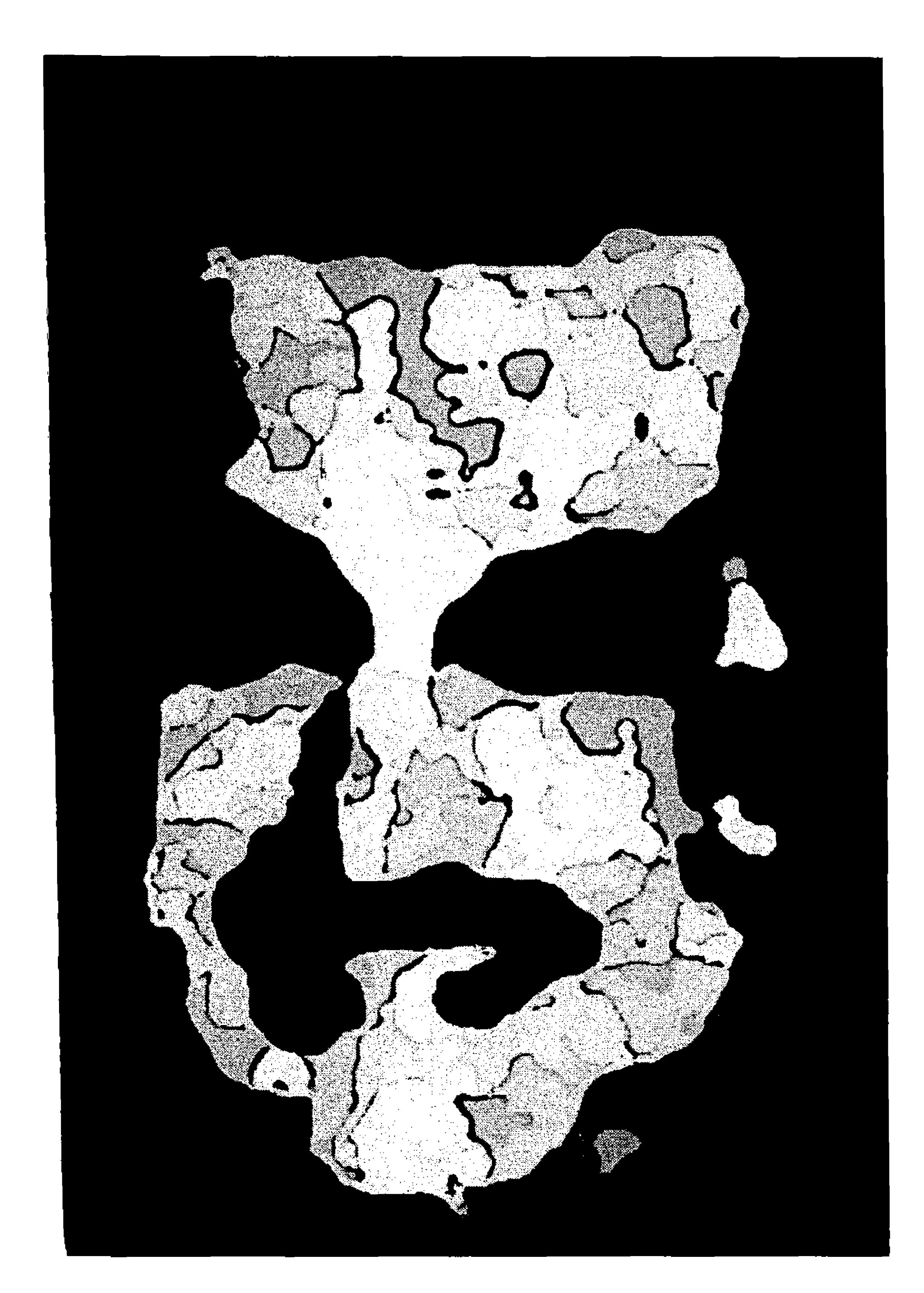
يا عطبرة

ماذا إعتراك

فتاك لم أسلمته لموته

ثم انثنيت تسمعين من دون حراك

سب الحسين من حثالات يزيد



يا أخانا . .ياجمال

إلى الرئيس جمال عبد الناصر

كان ابن طبقته . . ولكنه عرف ألا طريق خلاص بغير تحالف طبقي . .

كانت له اخطاؤه . . وكانت محمدته انه كان يتعظ بها ويتعلم منها ـ وأي ثمن؟

كان صادق الوطنية وكان مشعلا للوطنية ومذكياً لها . .

كان يؤمن بالعروبة ووحدتها الكبرى، فمات في معركة من معارك العروبة

لكل هذا الحب الكبير الذي محضنا أياه، محضناه يوم موته الحب الكبير.

(من قصيدة طويلة)

أيها النجمُ الذي ذوّبَ بالوجد شعاعا

ضاء للناس وضاعا

ما أضاعا

حينما قال وداعا

بحياء لمَّ عطفيه وفي الماس اختَبا

خاب من قال خبا

فهو في وجداننا من غضبة الحق نبا

أيّ ليلٍ لم تخلّفْ في دياجيه مجَرّه

أيّ قلبٍ لم تفجّر فيه ينبوعَ مَسَرّه

من تحـــدٍّ ونضال

يا أخانا.. يا جمال

***

أيها السبع الذي تفرَق من زأرته كلٌّ السباع

قد خلا منك العرين

أترى تطمع في الشبل وفي أم البنين

بعد أن غبت الضباع

يا أخانا.. ياجمال

***

أيها الشمس التي تمنح يَخْضُورَ اليناع

غبتِ فاليوم عبوس

كوكبُ النحس تغشّى بالنحوس

فإذا ظلٌّ من الشؤم على مصر ارتمى

ذو رؤوس

بخطاطيف حديد وفؤوس

ومُدىً ذات بريقٍ والتماع

أعملت فيه دماً

في الحشا لما مشى في الدار ناع

مات في العرس العروس

أملاً كان بسقفٍ وبخبزٍ ومتاع

ناء بالنوء الشراع

وارتمى النوتيُّ في اليم مناياه شجاع

***

وعلى الراية في الجبهةِ نحو النيل خفقٌ والتفاته
رأت الدارَ خلاءً دون مَن تزهو به الدارُ فحنّتْ
لمسجّى في حناياها نفيس
كان في الروّع مِجنّاً وذراع
قدّم القلبَ طعاما لأمانينا وجاع

***

وعلى نجمةِ داؤود ارتياحٌ وانشراحٌ وشماتهْ
إذ أرنّت
نخبَها ضاحكةً فيه الكؤوس
وتغنّت،
تَحْمَدُ الموت الذي نوّل ما لا يستطاع
قُهِرَ الماردُ من خلفِ قِناع
ما دَرَتْ إن مسَّنا قرحٌ بأنّا لا نزال
كجمال

***

غبتَ يا شمسُ ولكن لم يزل منك شعاع
عبقريّاً في الدُجُنّات يجوس
مثلَ نارٍ أججّتْ فوق يفاع
تقشعُ الحندسَ في الخَطْب الضَّروس
غبت؟ لا!! بل لم يزل منك انطباع
في اعتكار الهَوْل في ضَحوة ذيّاك الخميس
حين قالوا عنك في يوم الوداع
الوداع

يا حبيب الشعب ما أقسى الوداع

الوداع

مات لكن وهب الشعبَ حياته

الوداع

ضاع لكن حفظ الشعب وصاته

الوداع

راح لكن بثّ في النشء ثباته

الوداع!

وعلى الضفة في خط الدفاع

لهب الثأر الحبيس

يتلظى لاندفاعٍ

واستماته

وإذا الشعب خميس

لمّ في محنته الكبرى شتاتَه

مُقسِماً للفارس المصروع أن يمضي الصراع

مثلما كان عليه ـ وأمرّ

لا مفر

فاهدأي أيتها النفس التي انداحتْ نفوس

كنتِ شمساً لأمانينا فلما درجت للمستقر

أطلعت منا معانيها قمر

في قمر

وشموساً في شموس

إلى سلفادور أييندي

هكذا كان على الرأس ثمن
والذي قدم للأطفال خبزاً ولبنْ
أودعوه خِفيةً مثل (لوممبا)
حفرةً شقوا لها قلب الوطن
كيف والحُرُّ مُسَجّىً.. والإهانة ذاتُ أنيابٍ وظُفْرٍ ولسانْ
(سنتياغو) الشعب تُدميها الخيانة وعلى غُرّتها نَعلُ الجبان
دَرَج البدرُ وحيداً في الدياجي وعلى الأرض بقايا بشريّهْ
ودمٌ في ضوءِ مصباحٍ زجاجي
ورصاصٍ زاجرٍ من بندقيه
كان بدراً بمحيّا برتقالي
عُصبَتْ عيناه واقتيد صباح
فإذا الدمعُ الذي سال لآلي
وإذا الأيدي التي مُدّتْ رماح

***

فَرَشَ الطاغي الزرابي الدمويه
وهو يمشي بخيوطِ الأرجوز

باسطاً كفيّه بالرُّعبِ هديّه

نافشاً ذيلاً كطاؤوسٍ عجوز

ضجَّ بطنُ الارضِ نارٌ ونحاس

أجهضوا في الرّحمِ الطفلَ جنين

فإذا بالشمسِ تصحو من نُعاس

وبكفّيها دماءُ الكادحين

وأطلّتْ

فإذا الملعبُ غاصٌّ بالضحايا

وبحفلٍ دَمويْ

وسياطٌ تتهاوى ورصاص

واخضرارٌ من دمِ الشعبِ رَوِي

كمّوا الشعبَ على الأرض وثيق

وعليه سلّطوا نار السلاح

صامتاً

إلاّ (تشجع يا رفيق)

واذا مِتْنا فما ماتَ الكفاح

***

اضفري يا أم (بوليڤار) غاراً

لِفتىً ماتَ على البابِ مُدافع

وخذي ثأر (أييندي) و (جيڤارا)

واصنعي منه شباباً ومَدافع

أرضعي أطفالك الثورةَ نار

وادفعي كوكبةً في كوكبه

مثلَ موج البحر حتى الانتصار

لا يهابون اقتحام العقبه

لا تنوحي فوق حقلٍ أحرقوه

زَرْعُهُ من عَرقِ الشعب ارتوى

إن يكن مات(ايبندي)

فبنوه

***

يا (ايبندي) فوقَ حجْر الشعب نَمْ

لم تمتْ بل مات من أبدى الخِداع

كم غَشَتْنا غاشياتٌ لم تَدُمْ

وخرجنا نحن أقوى بالصّراع

وليَكنْ درساً لنا نحن الأُلى خدَعونا كلّما حان القطاف

اقْتُل الذئبَ صغيراً

قبلَما يكبرُ الذئب فيعتو بالخراف

لا يغرّنكَ ما جاء به من مواثيق ولاءٍ ووفاء

بل تأمل مُمعناً في نابهِ

أفَعفٌ هو عن سفكِ الدماء؟

هبْهُ قد جاءكَ في جلدِ حَمَل

أو قصّ الذئبُ منه المِخْلَب؟

لا تصدِّق كلَّ من أبدى الحِيَل

لا تثقْ فيه وإنْ كان أبا

***

كم فتىً مِنّا.. ولكنْ ليس منّا

يركبُ الشعبَ إلى الحكمِ مطيّه
فإذا ما نال مِنّا ما تمنّى
صارَ جلاداً وللشعبِ بليّه
يا شعوباً.. تحت نيرِ الظلمِ يكفي
حسبُنا الغفلةُ تُردي الغافلين
ليس للثورةِ من قلبٍ وكفٍ
غيرَ موصولٍ بثأر الكادحين







ذكريات

جاء للخرطوم أوغسطينو نيتو

شاعرٌ يُحسنُ وزنَ البندقيه

قابلوه بابتسامات ٍسخيه

وكلام ٍجيد ٍمن دون معنى

ربتوا في ظهرهِ بالاعتذار

ما استطعنا

ولَئِن كان لدينا

ما منعنا..

أو لا تشربُ شيئاً بارداً

فالطقسُ حار..

***

كان ذا وجه ٍصبور ٍ

والتفاتات ٍحَيِيه..

هامساً.. شكراً

وما قصرتُم قطْ

وألقى واقفاً ـ فارغَ كفيّنِ ـ التحيه

فتهرولتُ أنادي فوق ضوضاء المطار

أيّها القائدُ.. قفْ

هذي بلادي كمموا فاها

وشدّوا بزنادي

استودعتني لكَ سراً بعضَ زادي

خفقاتٍ في فؤادي..

***

كنتُ في بعض الأماسي..

أتمشى في ظلال الغابةِ الكبرى قريبا من كُماسي

وبأنفي عبقُ الموز الخضيل

اليراعاتُ لها ضوءٌ جميل

وصريرٌ جعلَ الصمتَ يموج

وظلامٌ ذو قلاعٍ وبروج

راقصاً حولي شياطينَ

فهيهات الخروج

وتعثرتُ على طوقٍ حديد

صدئٍ لكن له قفلٌ جديد

من هنا مرت الى المينا..

جماعاتُ العبيد

صرخاتٌ وأنينٌ ورطانه

وسياطٌ عربَدَتْ في بطلٍ يأبى استكانه

واستغاثات وأطفال سهارى دون قوت..

حاصرتني بينما كان بأكرا

بطلٌ شيخٌ يموت

مات (دبوامي) فتى البركان في شمِ الرواسي

مات محمولاً على الدرع

وفي الرأس أكاليلٌ من الغارِ

وفي الصّدغينْ آثار العراك

أطفأت أفواههُم.. شعلةَ غانا

وبكى (كابرالُ) في نعشِ (كوامى)

اختلاجَ البلبلِ المقرورِ في نتفِ الشتاء

ضاغطاً أضراسه غيظاً..

وفي عينيه جمرٌ من بكاء

أوَ قالوا، اغتالَ يا أفريقيا الثكلى فتاك

سرطانٌ من هنا أو من هناك

كَذَبوا .. (بل سرطانٌ من خِيانه)

***

قتلوا كابرال

كابرال الذي يشبه طفلاً هادئاً

في عينيه ومضُ ذكاء

وله نظّارةُ الخريج

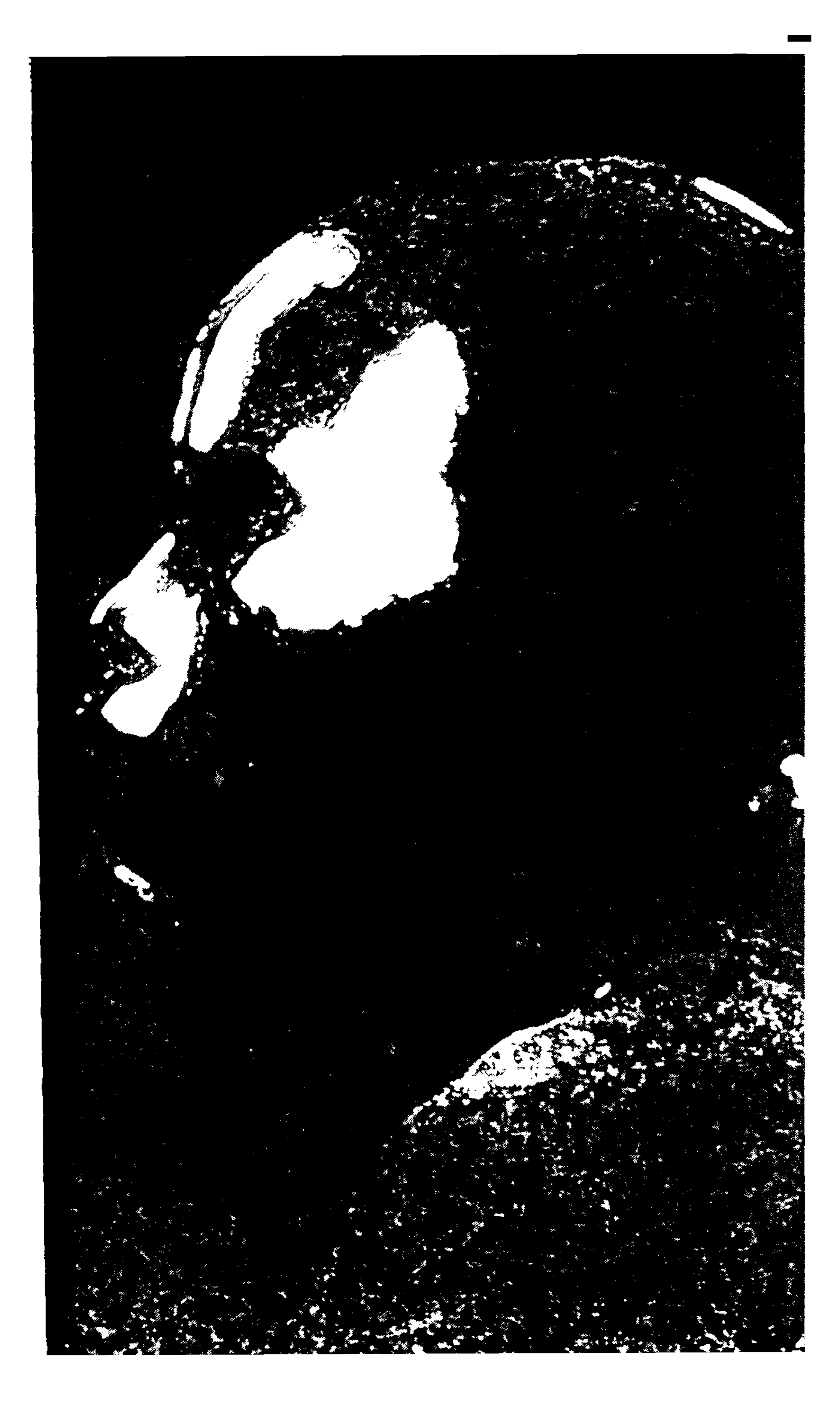
لكن في كلام البُسطاء

يرتدي في رأسه طاقيةً

من ريف (بيساو) .. غطاء

وحكيماً .. كان كالشيخ

وكالرمح استواء



وبسيطاً.. كاليراعاتِ إذا حلّ المساء
وحليماً.. وهو لا يقبلُ في الشعبِ الإهانة
إلتقينا في عجيج الأمم المتحدهْ
عاج نحوي
واعتنقنا.. فلنا في حُب ليلانا اشتراك
كان ذاك حينما جاء أيبندي
وأيبندي قتلوه..
قتلوه كجيفارا
قتلوا كابرالَ فجراً
وكوناكري نائمة
صار غِربال رصاصٍ ودماء
فارتمى حين ارتمى في أرض أفريقيا رجاء
من تراهم سجّلوا الآن برأس القائمهْ
الجواسيسَ أراها حائمهْ
والعناوين لديهم
أقتلوا.. أقتلونا.. أقتلونا
عبثاً..
كل ما تسقط منا نجمةٌ
نهضت أخرى سواها قائمهْ.

مرثية قبل موته الوشيك

غموضٌ على وجهك المستطيلْ
قناعُ القناعْ
النهوضُ بلا رمقٍ مستحيلْ
فكيف الصراعِ؟
لم يَعُدْ لك غيرُ قليلْ
وينعاك ناعْ
فأنت على كلِّ حالٍ قتيلْ
الوداع!
الوداع!

***

الأخاديدُ شقّت جبالاً من الكحلِ..
ينسابُ فيها دمٌ ساكنٌ، داكنٌ،
يتوامض في الشمسِ وهي عموديةٌ،
وغديرٌ بجانب آخرَ تسبح فيه الدناصير،
ترتاح في الشطّ، تنخس أسنانها،
وتفكّر في صفقةٍ تكنز الذهبا

أو صلاةٍ تصير - بقدرة ربٍ قديرٍ - بضاعه

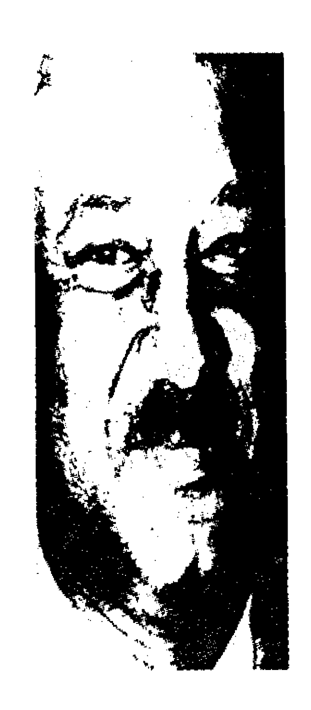
صدقوني الربا هو نفس الربا - يا جماعه -

ولكن بلا إسمه.

وتصرخ وحدك في الواد، ما من مجيب.

تصفّق كفيك مندهشاً وتصيحُ: غريب!

أنهرٌ ولا ماء فيه؟



قتل وقتل وقتل

باسم الله.. وباسم الشعب.. وباسم الدوله
باسم شرائع دينيه
أو وضعيه
باسم الثورة.. واسم قضيه
مظلوم يقتله ظالم
والظالم يقتله مظلوم
وبريء يقتله المظلوم أو الظالم
لا يعرف فيم يساق وما التهمه
وينال الكاتب والعالم
جائزه الإنسانيه
من فائض أرباح الديناميت
قتل.. قتل
في الساحة أو في أقبية الدوله
في مقهى أو في باحةِ بيت
قتلٌ بحديد لماعٍ.. قتلٌ بحديد كاتم صوت
قتل يستفتح بالتعذيب

بشع ورهيب

قتل غامض..

وِفق مهمه..

قتل في الضوء أو الظلمه

قتل عارض..

قتل فني..

بالجوع أو الكدح المُضني

قتل محسوب

قتل الهِمه

قتل الذِمه

قتل بطقوس أو غيرِ

طقوس

قتل بالقبلةِ

بالفن لأجل الفن

وبالقاموس

والعالم يدَرجُ من فوضى

وإلى فوضى

بطوايا تَسعلُ كالمرضى

تغلي بُغضاً في أعقاب القرن العشرين

والفتكُ باسم الحريه

والمدنيه

باسم المبدأ واسم الدين

الشعبُ يقول انا فردُ

فلتتركني لهموم القوت

والفردُ يقول أنا الشعبُ

من خالف سقت إليه الموت

باسم المصلحة العُليا

باسم الأمة

فأنا الربُ

قتلوه الثائر والشعب يتفرجُ في قتل

الثائر

لم يبكِ عليه سوى الشاعر

ونسوه كما ينسى الإحسان فتىً ناكر

وتعود حياةُ الناس كما كانت

ويعود الكبتُ إلى المكبوت

من يملك مالاً يا هذا..

أو يملكُ جاه

وله سلطانُ صار إلاه

يتصرفُ في أقدارِ الناسِ كما يهوى..

والناسُ سُكوت.

كلٌ يجري خلفَ الصبوات الفردية

فاملك مالاً،

كُنْ محتالاً،

عربِد فاجِر،

وافتك قاهِر

وأعمل ما لا..

تملأ بمديح سجاياك الأفواه

***

ساقوا للموت نبياً لا زاني

ساقوه، تَنادى القاصي والداني

وتجمعَ للرجم السُفهاء

الحجرُ الاول والثاني

والثالثُ من أيدي القرباء

فيجيش بعطفٍ رباني

وهو يعاني

جهلاء فاصفح عنهم يا أبتاه

كفوا عني يا إخواني

كفوا عني آهٍ.. آه

ويموت ولم تكمل شفتاه

وتصفق للملك الجائر

أيدٍ رَجمت رأس الثائر

أيدي الغوغاء

أيدي الجوعى، أيدي التعساء

***

ما جدوى تبرئة تاتيك وأنت ملاك في الملكوت

ما يغني تمثال أو مرثية في ذكرى موتك بعد الموت

وعن اليوم الآخر، فاسأل آخر.. أعرف مني باللاهوت

لكي لا ننسى

أسمى النميري الاخوان المسلمين «اخوان الشياطين»، لم يحتج غير الشيخ عمر التلمساني مرشد الاخوان المسلمين بمصر وذلك في نهاية مذكراته بالشرق الاوسط، معاتبا النميري على وصفه ذاك عتاب المحبين، اليس النميري هو مطبق الشرع الاسلامي في السودان، ومُظهر الدين الحق؟ أما «هم» أخوان الشياطين كما قال ـ فكأنما الامر لا يعنيهم وأخذوا يقدمون عن ذلك الأعذار.

تأمل بالله عليك الشاتم والمشتوم! الرئيس ـ صاحب البيعة الاسلامية ـ يتحالف مع من يراهم «اخوان الشياطين» دون تحرج أو استنكاف. وهم ـ حزب الدعوة الاسلامية وورثة الصحابة ـ هانئون بزواج المتعة هذا. ميكيافيلي مع ميكيافيلي آخر، اي اسلام هذا؟ اسلامُ التدليس، اسلامُ المتاجرة، اسلام المنفعة، اسلام آخر الزمان؟

فرح الاخوان المسلمون جذلين ـ كما أخبر المراسلون ـ وهم ينظرون الى محمود محمد طه على المشنقة والحبل في عنقه، أين تحشم المسلم ووقاره في حضرة الموت، وهل كل نفس إلا ذائقة الموت؟ أما كان الأجدر بهم ان يتذكروا في موقف كهذا «عودة» و «سيد قطب» والحبل على عنقيهما، وما الحبل بوقف على احد دون اخر؟ ثم متى كان الحبل بقاتل للانسان ان قُتل الانسان لموقف ولمبدأ؟ والموت لا يستوجب الجَذل أو الشماتة، كفى به عبرةً وعظةً فرحوا وابتهجوا وشمتوا، وما دروا انهم هم الذين كانوا على المشنقة حقاً لا محمود، عليه سلام.

كنت وصفته في مجلة الدستور بانه «المايوي من منازلهم، المايوي بالمجان» لسذاجته السياسية ـ على الاقل ـ في مساندة نظام بانت سواته وانكشفت عورته، واتضح للغاشي والماشي فساده وما جرّ للبلاد من دمار وما بدّدَ من تراث الشعب. على ان محموداً قال كلمته الصادقه ووقف ثابتا تحتها كالطود الأشم. ومات على الحبل ميتة نشتهيها. بسمته الهازئة، بهم وبموتهم، تقول: «يا ايتها

النفس المطمئنة » ومآثر شعبنا التليدة تزغرد كيوم وقفتنا في كرري. مات محمود شجاعا، بطلاً، قدوةً، شهيداً، يجسّد اروع مواريث شعبنا، يجسّد شعبنا، ويمثل - فرداً - افضل ما فينا، اتفقنا معه أو اختلفنا، محمود في ذلك الموقف هو نحن، غير أنه هو الذي وقَفَه شامخاً. وستظل تلك الابتسامة الخالدة تقضّ وتمضّ مراقد الذين عجزوا عن مقارعته الحجة بالحجة، بالتي هي أحسن. فاستعانوا بالحبل وبالحطب، فلا نامت أعين الجبناء، سنظل نذكره جيلاً بعد جيل بعد جيل، باكبار شديد، نفخر بامثولته ونعتز، وحين نفرغ من مراجعة ما وقف من أجله وما مات في سبيله ليحيا من بعده، سيزداد ابناؤنا به فخراً واعتزازا.

قال الفليسلوف « جيوردانو برونو » مخاطباً محكمة التفتيش قبل ان تحرقه على الصليب بتهم الهرْطقة (الردّه في المصطلح الكنسي) كلمة يرن صداها حتى اليوم « ان محاكمتي هذه ستسبب ذعراً شديداً لكم.. لا لي ».

هذا الذعر سيطارد من غسلوا أيديهم الملوثة المتراجفة بدماء محمود الزكية « قاض في الجنة وقاضيان في النار ». قالها من يعرف امثالهم من القضاة حق المعرفة. قاضيان في النار.

ومن هؤلاء القضاة الذين في النار، الحقوقي خريج السوربون، دارس العدالة الانكليزية والعدالة الفرنسية، ناهيك عن عدالة الاسلام وسيرة السلف... الدكتور الترابي مرشد أخوان الشياطين - الأخوان المسلمين سابقاً - او كما أسماهم صاحب بيعته وقدوته في السوء والفساد الرئيس القائد جعفر الخاشقجي. الدكتور الترابي، مسؤول قبل سواه، وباكثر من سواه، عن دم رجل كل جريرته انه جرؤ على التفكير والاجتهاد والقول، أصاب أم اخطأ، بمحاكمة تستنكف عن قصَرها وتلفيقها العدالة الوضعية ناهيك من عدالة الاسلام، ولكن اذا عُرِفَ السبب بَطل العجب.

ولكن باسم عدالة الاسلام وشرع الاسلام كَذّب الفَجَرةُ المنافقون، بها قُطع رأس الحسين ابن علي وسُبَّ آل البيت من المنابر، بها صلب العائذ بالبيت الحرام، بها كفّرَ الحنابلة الأشاعرة ولاحقوهم بالنكال بها عُذّب ابن حنبل واذيق الحنابلة النكال، بها سُجن ابن تيمية وأُبطلت فتاواه وضرب وأهين وأحرقت كتبه، عدالة ناصبة كاذبة ينازع بها طلاب السلطة سلطان الله، يخيفون بها العباد ويشيعون با الفساد، ويلطخون بالعار اسم الاسلام والاسلام بريء مما يدّعون، لان اسلامهم المزعوم مجرد « عدة شغل ».

والان الى مرشد اخوان الشياطين ما اسماهم فرعون ذو الاوتاد، جعفر

الخاشقجي. الترابي تابع في الضلال لجعفر، وجعفر تابع للخاشقجي، والخاشقجي تابع لما يعلم الجميع في الشرق والغرب، تُفّو، تُفُو على التابع والمتبوع ولما اتّبعه من أجله...

حين تقع عين الدكتور الترابي على ولد من أولاده يذكر جدين لذلك الولد من جهتي الام، الجد الأول - من امه - محمد احمد المهدي - لقد انكر مهدية الرجل قضاة وفقهاء من أمثال الترابي، وقضاة محمود محمد طه، وأعضاء مجلس المساجد العالمي بلندن، الذي طالب بقتل محمود، اقرّ اولئك باسم الشريعة تكفير المهدي وحربه وقتاله وقتله، فماذا كان رد الإمام المهدي لمن حكموا عليه بالمروق من شرع الله وأباحوا قتله (وشرع الله في نظر فقهاء السلطان هو شرع السلطان)... اسماهم بلا تردد «علماء السوء». فقهاؤك يا ترابي، وأنت على رأسهم كما قال الامام المهدي: علماء السوء.

والجد الاخر من جهة الاب الذي هو الدكتور الترابي نفسه، هو حمد الترابي، يقول ود ضيف الله في الطبقات «ثم لما وصل مكة أيام الحج قال أنا المهدي، فضربوه هو وحيرانه، قالت الحاجة - يعني جدة الدكتور الترابي الكبرى - ساقونا وحبسونا.. فارسل ميرفاً حواره وقال أمش في سنار وقل المهدي ظهر، فامر الملك بادي ابو ذقن بقتله وجرّه» وقال ود ضيف الله عنه انه «تكلم بالمغيبات، وبما كان في العالم وبما سيكون».... بما سيكون!؟!!!

جدّا اولادك يا دكتور الترابي من الجهتين كلاهما قال بانه المهدي.. افتقتل محمودا وما قالها: فالسودان لا تقتل فيه الروح التي حرم الله كما تقتل البهيمة... لستَ عليهم بمسيطر. ولكن الم يشيعوا عن الثائر «ود حبوبه» بأنه قال انه نبي الله عيسى لانه ابى على شعبه ودينه الضيم لكي يبرروا قتله. هكذا علماء السوء، فقهاء السلطان الغاشم، بطانة الضلال. وانت منهم يا مرشد اخوان الشياطين، قالها مولاك جعفر الخاشقجي لا انا، جعفر الخاشقجي.

ولكن حقّ لنا ان نتساءل من أين وجد النميري هذه الجراة ليهين حلفاءه حَمَلة الاسياخ، دون ان يرفعوا في وجهه أسياخهم، ودون الاحتجاج الا ما كان من الشيخ عمر التلمساني في الشرق الاوسط، دون الاحتجاج ودون بَغم!

لان النميري - كما هي عادته وهوايته - يملك تحت يده ما يخزيهم ويكسر امامه نظراتهم، من ذلك ما افشاه وزير من وزرائه. في اجتماع للوزراء لام النميري الوزراء الذين ينتقدون في مجالسهم الخاصة النظام وكأنهم ليسوا منه، وطالب الجميع بالتضامن المطلق، وافقه الجميع كعادتهم، انفض الاجتماع.

في المكتب الخاص المجاور، دعا النميري اليه الترابي في حضرة آخرين ومنهم من

حكى الواقعة. قال له: كيف تجتمع بالاخوان المسلمين بالجامعة وتنتقد لهم السلطة وتقول بأنك تسايرها حتى تتغلغل فيها ثم تنقضّ عليها؟ نفى الترابي حدوث ذلك نفياً جازماً. سأله النميري: اتقسم على اسم الله؟ مد الترابي يده لمصحف أمام النميري. قال له النميري: بل اقسم على المصحف الذي في جيبك. اخرج الترابي المصحف واقسم على اسم الله. انتهت المقابلة بنكتة وضحكة ثم قال النميري للترابي: طيب امش يا ترابي. انصرف المرشد العام.

حينئذ وضع النميري شريط «كاسيت» على آلة بالقرب منه وادار الشريط، كان تسجيلا بالكامل لما دار في الاجتماع الذي أقسم الترابي ويده على المصحف انه لم يكن. قال النميري باحتقار شديد: انظروا هذا. الذي أقسم يمينا مغلّظةً انه لم يفعل ذلك، اي مسلم هذا الاخ المسلم، مرشد الاخوان المسلمين. انظروا اليه، قالها باحتقار شديد وكفى من يحتقره حتى النميري هواناً ولؤماً ووضاعة، مَنْ مرشد مَنْ؟ النميري ام الترابي؟

واخذ يجمع التسجيلات بالصوت والصورة، مجموعة كاملة رهيبة، حتى وصل به الاطمئنان لكي يقول عن الاخوان المسلمين - بناءً عليه - انهم «اخوان الشياطين» وهم يتلمسون لهذا الوصف كل مخرج، فقادتهم يعلمون علم اليقين انه قادر على أن يبرهن بالصوت والصورة والمستندات والمستمسكات على أنهم كما قال ولم يحتجوا عليه.

ولكن ما لم يقله هو، كيف أباح لنفسه هو ان يكون قريناً لمن يراهم «اخوان الشياطين» لَوْ لم يكن اخاً لهم بالرضاع. ولو لم يكن الشيطان نفسه، بئس الشاتم والمشتوم كلاهما أخ للشيطان جمعهما حلف قذر يا منافقون؟ يا سماسرة الدين والضلال، يا مجوعي الشعب؟ يا قتلة النفوس! على الأقل، محمود لم يقتل نفساً ولا نادى بقتل. عاش طوال حياته مفكراً، زاهداً، مناضلاً، متعففاً، مهذباً، يخطىء ويصيب، ثم مات كريماً، أبياً، دفاعاً عن الكرامة والحق، له ولغيره.

الشاعر



«علي الملك» ... ومدينته

مدينتهُ الآدميةُ مجبولةٌ من ترابْ
يتنطّسُ أسرارَها
واثبَ العينِ منتبهَ الأذنين
يحدّث اخبارها
هل يرى عاشقٌ مُدنَفٌ في الحبيبْ
أيَّ عيب؟
مدينته البدويّةُ مجبولةٌ من ترابْ
ولا تبلغُ المدنُ العسجديّةُ مقدارَها
تتباهى على ناطحات السحابْ
بحيٍّ سَما أصلهُ لِركابْ (١)
فاح فيه شذى من «علي»

***

حين غابْ
جرَت وهي حافيةٌ، في المصاب
تهيلُ الرمادَ على رأسها باليدينْ

تنادي على الناسِ: وآحسرتا وَيبْ وَيبْ! (٢)

فقدنا الأديب،

فقدنا النجيب،

فقدنا اللبيب،

فقدنا «علي»!

***

فقدنا الذي كان زينَ المجالس، زينَ الصحابْ

فقدنا شهامتَه، وفقدنا شجاعتَه، وفقدنا

شهادتَه، وفقدنَا

كتابتَه، ودعابتَه،

والحديثَ الطلي

حسرتا، وْيبَ لي، ويْبَ لي، ويْبَ لي!

***

حين قيل لها بانتحابْ،

استردَّ الوديعةَ صاحبُها، استحمَلي! (٣)

ذَهُلتْ في المصابْ

تَتمتِمُ: يا رحمة اللهِ لم تبخلي

لمن دونَه أُعطيات، فكيف وهذا «علي»؟

حنانَيكِ كوني دريئتهُ في الحسابْ

ومغفرةً وثوابْ

وبُشْرى مُرحِّبةً بالملائكِ عند الأرائكِ،

بشّي الزرابيَ للمُقبِلِ

وقولي له: أدخلِ

يبرُّ بكَ اللهُ في الكوثرِ المستطابْ (٤)
قَسَمَ الأشعثِ الأغبرِ المُسْتجابْ
بكى رافعاً كفَّه: يا كريمَ الجنابْ
بحقِّ جلالِك.. أكرِمْ «علي».

***

عليّ!
يا أخي، يا شقيقي
عليُّ، شريكَ النضالِ، عليُّ رفيقي
ويا خندقي في الحصار، ويا فَرَجي وقت ضيقي
ويا صُرّةَ الزادِ تمسكُني في اغتماضِ الطريقِ
ويا رَكْوَتي كعكعت في لهاتي وقد جفّ ريقي
عليُّ.. ذراعي اليمينَ، عليُّ خريفي
ونيلي، وجرفي، وبهجةَ ريفي
«عليُّ» تتمّةَ كيفي، وستريَ في أقرباي وضيفي (٥)
«عليُّ» إنطراحةَ وجهي في الاكتئابْ
وشُواريَ إن عُدِم الرايُ، يا عوضي في الخرابْ
ألا اين أنت أجبْني، اتسمعُني يا «علي»؟
اتسمع احبابَك الأقربين تركتَهُم للمكانِ العلي؟
ألا أين ليلاتُك المائساتُ، وأين زياراتك الآنساتُ؟
وأين ائتلاقُ الثريّا، وأين انطلاقُ المحيّا.
وأين اندفاقُ قوارير عطرك في المحفلِ؟
تشاغل «مُخْ» وعلاءٌ، وعبد العزيز،
وبعد صلاةِ العشاءِ «أبا سمبل» (٦)

وتحكي نوادرَ من « سيْنةٍ »، وتحكي أقاصيص عن « صندلِ »
وأنت تغنّي، وأنت تقلّدُ هذا وذاك، وتنعشنا بالحديث الأنيقِ
تديرُ على مجلسٍ للنُدامى، بحلو لسانِك كأسَ رحيقِ
وما كنتَ إلا السماءَ تمشّتْ على الارضِ هوْناً،
يمازحُها ويناديكَ في ألفةٍ وبلا كلفةٍ:
يا علي!
يا علي!
كادحٌ في الفريقِ
***

« علي! »
يا خدينَ الصبا، يا شهيّ الجوابْ
ويا توأم الروح، والامنياتُ رِطابْ
اتذكُرُنا مفلِسَيْن نفتّشُ عن « منْصَ » يسعِفُ،
والشهرُ في الأولِ؟
تقول سيمسِكُنا بحديثِ طويلٍ، ولكنْ سيكشفُ ثانيةً للحسابْ
و« منصورُ » ذو نجدةٍ وسخاءٍ، اذا ما قصدناه لم يخذلِ
فهيّا بنا ودعِ الأمرَ لي.(٧)
***

« علي »
يا « علي »!
أتسمعُني يا « علي »؟
أتذكرُ: أين فطورك؟ « أنت وتوفيقُ تتّهماني »(٨)
بأنْ ليس ذلك للمأكل

ولكنْ محاولةٌ لاقترابْ

أقول: ألا خبتْما خبتما، فهذا كذابْ

ونضحكُ رقرقَ بللُّورُنا ـ ليس بين الصحابْ

خبيثُ طوايا، ولؤمُ ارتيابْ

وما استوجبَ الشكُّ بعض ملامٍ، ولا الاتّهامُ العتابْ

ولكن معابثةٌ قربتنا، كم نظمَ الخيطُ درَّ الحلي.

«عليٌّ» أجبْني: أهلْ بعد موتْ

التقيتَ بتوفيقَ في الملكوتْ؟

وقلتَ لتوفيقَ زين الشبابْ

فقدناكَ توفيقُ، لكننّا ما نسينا نداوةَ تلك السجايا العذابْ

ولا خفّةَ الدمِ، لا الخُلُق الشهْمَ، لا الأريحيّةَ،

لا المزحةَ الأخويةَ، لا صدحةَ البلبلِ

ألا يا ابن عمي شهيدَ الوفاءِ، ويا جمل الشَّيْلِ.

جمَّ الأيادي، وكنتَ ببرٍ خفيٍ صموتْ

رَمَتْكَ المنيّةُ في مقتلِ

وقد كَمُنَتْ في طريق «أبي قوته» و «قُلي»

فَوَا حًر قلباه... وَا حَرَّ قلباه.. من نازف في الطريق

وللموتِ قهقهةٌ سَمِعَتها «القطينةُ».. غيرَ مصدِّقة

في دجى ليلِها الأليَلِ

فاضرمتَ توفيقُ في الجوفِ جمراً تلظّى حقيقي

وكنتَ ابنَ عمي، وكنتَ صديقي

***

و «عثمان» ظلَّ الوفيَّ الحفيَّ..

يؤازرني وأنا في احترابْ
ويدنو يسلسل ضحكتَه، فإذا عَتَماتي بطلعته تنجلي
يعزّزُ من عُدّتي وعتادي، يسدّدُ من لكَماتي القويّه
ويمضي كما جاء في لمحةٍ كالشهابْ
يردّدُ في كلّ آونةٍ: « ظلموك صلاحُ »
وأنت المُبرّأ من ظلمِهمْ - انّ هذا جلي.
وكان يودّك « عثمان » هذا الحميمُ،
يَبرُّكَ باللفتةِ الالمعيّه.(٩)

***

وكنتَ تراني الشجاعَ الذي وحده بشجاعته شكّل الأغلبيه(١٠)
وكنتَ تراني تحديْتُ حتى كان مقالي زحفُ سريّه
وقد كنتَ أنت - عليٌّ - كذلك..
ما بعتّني قطُّ رغمَ توالي العروضِ الخفيّه
معي! ومعي! ومعي! ما تلفّت أبحث عنك
اقول اختفي صاحبي في المضيقِ
معي! ومعي! ومعي! ما تساءلتُ في لحظةٍ:
أين زاغَ رفيقي
وكنتُ أُعدّك ذخري، إلى أن سمعتُ أخي من وراء المحيطِ
اخي « الكَابُلي »(١١)
يصيحُ، ولمْ اتعرّفْ على صوتِه من بكاءِ:
صلاحُ فقدنا اخاك، فقدنا اخانا، فقدْنا « علي »
فنبّهت نفسي: أرى طائرَ الموت حَوّمَ فوْقي
وحانَ الذهابْ

فما طعمُ عيشي بعد صديقي؟
لقد كان عهداً وضيئاً هنيئاً جريئاً، على رغم طارِقه المبتلي
وها اندلَعتْ فيه نارُ الحريقِ
فيا ويْبَ لي، ويْبَ لي! ويْبَ لي!
وهل يعذُرَنّ الشجيَّ خلي؟
***
وحين احتفْينا بعشرينك الزاهياتِ أهَبْتَ:
أيا شاعرَ القومِ أطلق لهاتَك..
تطلقْ قوى العزمِ والحزمِ والأملِ
همستُ: بلى، لي مُجاجةُ شهْدٍ مُخبأةٌ لك بين الهدايا،
وإنْ لم تذكَرْ، ولم تسألِ،
فهاك «علي»:
«عقدانِ كعقديْنِ على جيدِ صباكَ
فامدُدْ للنجم، النجمِ النائي - يُمناكَ
وافتحْ أزرارَ قميصكَ مقتحماً
دُفُعاتِ الريحِ عوَتْ تتحداكَ»
بذاك انتشْينا، فيا لاعتدادِ الشبابْ
نؤمّلُ ننقعُ عطشَتَنا بورودِ السرابْ
وهيهات!
نغفلُ، والموتُ ثعبانُه منطوٍ يتربّصُنا وهو لم يغفلِ
تناومَ، ملمُسه ناعمٌ دافئٌ يسبِلُ الجفنَ في كسلِ
بينما اهتاجَ بالسمِّ نابْ
وغالك - يقصدُني بالأذيّةِ، لا أنت،

فالدورُ ـ أنْ صحّ إمساكه للحسابْ ـ كان لي .

***

مدينتُه الآدميةُ مجبولةٌ من ترابْ

مدينةُ كلُّ الأحبَّهمُ : البسطاءِ وصفوتها المبدعين

تمنّى له قدلةً ـ حافياً حالقاً ـ كالخليلِ (١٢)

يطوفُ بها بين خورٍ ونيلِ

يقطِّعُ أنفاسَه زَفَراتٍ، ليغمضَ عينيه بعد قليلِ

بعيداً عن الأهلِ، في وحشةٍ واغترابْ :

آه أنا، آه آه، أنا آه آه، أنا أنا آه

«عـــزّه» فـي هـواك　　«عـزّه» نـحن الجـبـالْ

ولـلـيـخـوض صـفـاك　　«عـزّه» نـحن الـنـبـالْ

«عـــزّه» مـــا بنومْ　　الـلـيـل مــــحـــالْ

وبـحـسـب الـنجـوم　　فـــوق الـرحـــالْ

وخِلقَــه الزاد كِـمِـلْ　　وأنـا حــالـي حـــالْ

مـتـينَ أعــودْ أشـوفْ　　ظـبـيـاتـنا الـكُـحـالْ

وما عاد إلا ليرقدَ في حفرةٍ جمعتْ عاشقيْن :

«علياً» شهيدَ صبابته ـ وترابَ الوطنْ

يمدُّ لمن عاشَ في شَغَفٍ حبَّه ـ قلبَه باليديْن

صدقنا لك الوعدَ فعلَ الصدوقِ الأمينْ

ولم نتقاضَ عليه ثمنْ

فكنْ حافظاً للجميلِ

فكنْ حافظاً للجميلِ غداً،

يا وطن!

***

حبيبتُه البدويّةُ ذات الإهاب الحَسَنْ

سلبت منه نومَه

يرى في الظلامِ غدائرَها التمعت، وهو يرعى نجومَه

يطوفُ بها في الهزيعِ الاخير.. ويطلقُ حنجرةَ من «كرومه»

يا ليلْ.. ابقى لي شاهدْ.. على نارْ حبي وجنوني..يا ليلْ!

طريتْ «النـاس» «وونّاسـه» طريتْ «ام درْ» (١٣) حليل ناسها

كيـف أسـلاها واتنـاسـى ومفتـون بظبـي كناسـها

يا عـزّه» الفـراق بيّ طـال وسـال سيـل الدمـع هطـالْ

يا عزّه»!

***

حبيبتُه من ترابْ

مُبجلّةٌ عنده: بشراً، وضفافاً، وبوابةً وقبابْ

من «فتيحَ» إلى «الجبلِ»

وها آبَ نعشاً بغير حراكِ، تشيّعُه وتهيلُ الترابْ

تعضُّ بناناً عليه خضابْ

وترقص بالسيف، حازمةً وسطها:

ويْبَ لي! ويْبَ لي! ويْبَ لي!

وهذا شريكُ ضنايَ «علي»

يُدلّى لحفرته من عَلِ

ويهال عليه الترابْ

ويْبَ لي! ويْبَ لي! ويْبَ لي!

فُجزّي قرونَكِ، لا تستحمّي، (١٤)

ولا تفرُكي الطيبَ في أذنَيكِ،

ولا تدلكي ساعديْكِ،

ولا توقدي «الشافَ» في حفرةٍ، ولا تحبلي

***

عليْ!

يا عليْ!

يا عليْ!

اناديكَ ـ هيهات ـ في صرخةٍ والتياعْ

أناديكَ في كلّ ناحية، وأناديكَ في كلّ ساعْ

نداءَ التي وَلغَت في دماءِ جَناها(١٥) الضباعْ

الوداعَ، الوداعَ «علي»!

أمُتَّ بعيداً هناك، وفاءَ «ربيعةَ» في التلّ مرتكزاً باليراعْ(١٦)

أم «فرشتَ» إباءَ «الخليفةِ» إذ لم يعدُ في عجاجِ الصراعْ

سوى ميتةِ البطل؟

وانتهيتَ يجلّلُ منك الجبينَ الفَخارْ

وقد ضَفر الشعبُ لاسمكَ بين الجوانحِ إكليلَ غارْ

الوداعَ! الوداعَ! الوداعْ!

فقدتُ الصوابَ «علي»

غفر اللهُ لي(١٧)

***

مضيتَ وخلّفتَ لي ترْحةً

كأنْ للمنيةِ عنديَ ثارْ

وغوّرتَ في مهجتي قَرحةً

إذا ما ذكرتُك ذاتَ اعتصارْ

وهذي المراراتُ في شفتي

كهذي الدموعِ الغزارِ الحِرارْ

وطيفُك يخطرُ في مقلتي

يُحنْظِلُ حلوايَ ليلَ نهارْ

الوداعَ، الوداعَ اخا مقتي[18]

فما لي وقارٌ، وما لي اصطبار

ويا موتُ خُذْ، يحزن القلبُ او تدمعُ العينُ، لكنْ لنا ثقةٌ في البديلِ

وشرْفْ بلا حَرَجٍ، مَنْ تخطفتَ يا موتُ صارْ

بسيرته، وسريرته، وعطيّته: قدوةً للصغارْ

منارةَ جيلٍ، وجيلٍ، وجيلِ

***

الا ولكلِّ امرئٍ أجلٌ ثابتٌ و كتابْ

فامّا حياةٌ مهذبةٌ تستحقُّ، سَمَتْ وامَتَلتْ كالسحابْ

وأما طماعيةٌ ومدافعةٌ جلفةٌ كلُهاثِ الدوابْ

فما أسهل الاختيارْ

وما أصعب الاختيارْ

فنمْ هانئاً يا اخا ثقتي، فزتَ في الاختبارْ

والسلامُ عليك أخا رحلتي، السلامُ عليك وراءَ الحجابْ

وشهَّيْتني في المنيّةِ، سيفي يهفو إلى ضجعةٍ في القرابْ

السلامُ عليك انتظرني، فما لي غيرُ عصا وعليها جرابْ

السلامُ عليك، السلامُ عليك، علي!

السلامُ عليك صديقَ الجميع

السلامُ عليك حبيبَ الجميعِ

السلامُ عليك أثيرَ الجميعِ

السلامُ عليك إلى أبد الآبدين «علي»

---

١) حي «الركابيه» حيث ترعرع فقيدنا.

٢) الويب هو الويل، تقلب السودانيات الياء واواً، أول من ارجعها الى اصلها علاّمتنا الاستاذ عبد الله الطيب أمد الله في عمره. وكان المرحوم يحبه ويحب شعره ويتلمظ حلاواته، ولقد بكاه استاذه بالشعر الصادق البليغ.

(٣) استحمَلي – اصبري ، من استخدامات أهل السودان العامية (ولعل أصلها عربي فصيح).

٤) بلك : بكسر الكاف او فتحها، هنا إشارة إلى حديث شريف حول إبرار الله قسمَ الاشعث الاغبر ذي الطِمرين.

٥) وكان المرحوم لي كما وصفَ به شاعرنا الشعبي صاحبه ابراهيم في ابيات شائعة.

٦) كان فقيدنا يختصر بعض الاسماء تدليلا، «مخ» صديقه الالصق الوفي مختار عباس، والاشارة هنا الى علاء الدين الدليل وعبد العزيز داؤود ونصر الدين كنّه، ومعذرة لمن لم اذكرهم ولعلهم اكثر ملازمة له وقرباً مني، و«سينه» و «صندل» ممن أحبهم «علي» حقاً رحم الله الاموات وامدّ في اعمار الاحياء والزمهم الصبر على فقده.

٧) منصور عثمان البارودي او كما يختصره ابن خاله المرحوم، وكان يكن له احتراماً عميقاً ووداً صادقاً باكثر مما كان يعرب عنه وإنْ اشعرني به دائما، وكان منجدي انا وعلي شهراً بعد شهر، امد الله في عمره.

٨) المرحوم الفريق محمد توفيق خليل، مات في حادث وهو يرعى اموال يتامى اوصاه بها ابوهم، صديقه ـ عند وفاته فادى الامانة وبذلك مات.

٩) المرحوم عثمان حسن احمد الكد، وكان يردد لي تلك العبارة كل مرة يلقاني فيها ولعلها من مسرحية الملك لير، وذلك حين كنت أتعرض لحملة جائرة عارمة ناصرني فيها باكثر مما اجملته، فانا مدين له بالكثير رحمه الله.

١٠) عبارة أوردتها في « غضبة الهبباي » أهداني بها « علي » واحدا من كتبه، كما كان يذكر لي دائماً باعجاب قصيدتي، « انها أقوى منك » الموجهة للحاكم البريطاني على صفحات « الصراحة » عند قرار ايقافها، والحق، كان « علي » بجانبي في وقفات كثيرة وقفتها، ماذا تراني أقول، رحمه الله فقد كان شجاعاً وكان وفياً.

١١) الأخ محمد الكابلي امدّ الله في عمره، وهو الذي اتصل بي من واشنطون يبلغني بالنبأ المشؤوم، ولم أدرك لحظتها من كان يكلّمني.

١٢) « قدلة » سودانية محض - أو محضة - وهي فصيحة تماما وإنْ أبدل السودانيون تاءها بباء رهذا والله أوقع.

١٣) أم در، اختصار لاسم العاصمة الوطنية ام درمان.

١٤) كلمة (قرون) للضفائر - فصحى وتستخدمها السودانيات سليقة . . .

١٥) جناها: ولدها - على نحو ما هو مستعمل في السودان. قال حاتم الطائي : خلقتُ احب السيف والضيف والجنى.

١٦) ربيعة بن مكدّم، حامي الظعينة، اتكا على رمحه على تلة بمرأى من العدو الذي هاب الاقتراب منه حتى نجا من حماهم، لم يدرك العدو انه كان ميتا الا حين سقط من على صهوته، والخليفة التعائشي كالشيخ عبود والد مهيرة « فرش » - اي فروته - على الأرض مستقبلا القبلة محكّماً عدوه في مصيره، حين لم يعدْ أملٌ في كر بعد فر، هذا والله شعب عظيم.

١٧) للاسلام نواهٍ صارمة في السلوك ازاء الموت، والبشر على أية حال، خطاؤون وربهم برحمته غفور.

١٨) المقَة هي الحب



يد باردة

(مرثية نفيسة أحمد إبراهيم)

بعد حياة كلها بذل وتضحية ونكران ذات، معلمة وأماً لتسعة، ما أهملت تنشئتهم، ورائدة في الاتحاد النسائي رئيسة لفرعه في عاصمة الجزيرة، ومساهمة في النشاط الوطني، وكاتبة، أنهت حياتها وهي تصارع أمراضها العضال بجلد وصبر نادرين، وبنفْسِ المحبةِ للآخرين التي بدأت بها حياتها، وضوأت كل حياتها، فقليل عليها هذه الكلمات من شقيق ورفيق.

وارتمتْ يدُها بارده
بجانب جثتها الهامده
كأن لم تفِضْ في العروقِ حياة
ولم تنتفضْ عزمةٌ مارده
ولم تنجر الأبنوس النبيل
ولم تضعِ الصخرَ في القاعده
ولم تقضِ ليلاً طويلَ الحماس
بمتراس قلعتها راصده(١)
ولم تنفتحْ بالعطاء الجزيل
ولم تنشرحْ همةٌ ماجده
ولم تُحرِّق وهي تضرم ناراً



تمد لقاصدها المائده

سلامٌ على يدها الصامده

سلامٌ لآلائها الخالده

***

« سينتقم الله ممّن أذَونا ولم نؤذِهم »

ـ قال والدها الشيخُ ـ أين الشفيع؟

وآبائي الفقراء الأجّلةُ، في خدمة الحق عاشوا

وفي خدمة الحقِ ماتوا جميع

وكان لي الدور لكنها أخذَتْهُ وسارتْ سريعاً سريع

تنحيتُ عنه لمن جاءه، ولمن شاءه، ولمن يستطيع

فيمضي فريقٌ، ويلحقه بعد حين فريق

طريقُ الغروب عديدٌ، ولكن غايته واحده

وكم وَحشة في الطريق

وكم ضجعةٍ في الغضا

كم الساعة الآن؟

ـ نصف النهار

ـ النهار انقضى

قلت نمْ يا أبي، قال إن نمتُ لن أستفيقْ

ويُرْدِفُ:

كم أمّه راقده!

كم الساعة الآن؟

ـ أحسبها الواحده

ـ عِلمها عند ربي

أتذهب أم تترك الأمرَ لي؟

قلتُ أبغي رضاك، وما ترتأيه له فائده

ردّ شكراً بُنيّ، مسائلُ ذهنيةٌ عرضتْ لي

إليّ.. إليّ.. أعطني لقمةً يا ابنةَ الناظرِ(١)

يخاطب من لا نرى..

ويهرّف!

أحمد كان يمدّ الخوانّ: كلوا واشربوا وهَنيا

يُعدُّ القِرَى ساعياً لا يني

وهل كان أحمد بالهيّنِ!

قد امتحنوني مليّاً.. ولكنني كنت أعرفُ علمَ الحسابْ

الا مزّق الله مَن مزقونا، نظامٌ ولكنه في اضطراب

وحين نُسائل: أي نظام؟ وننظر مِن حوله في ارتقاب

نرى بسمةً نوّرت وجَهُهُ، ولكنْ على وَهنٍ واقتضاب

كما يرمق الأب إبناً غبيّا

ويهتف:

هيا اعطني لقمةً با ابنةَ الناظر

لِمَنْ خيمةٌ نصبوها، لِمَنْ ناحتِ النائحه

خلاص! انْتَهتْ.. بنتُنا أمراةٌ صالحهْ

فاقرأوا (الفاتحه)

كان ذلك في البارحه

وماتت هي اليوم، ولكن حسرتاه مصيبتنا الفادحه!

***

وفي عِلَةٍ والأذى تحته، وفيهِ ازورارٌ من الزائر

يصيح دعوني، دعوني وشأني، تلاطفه بنتُه في كياسه
إتئد أبتَاه؟ فكيف صلاتك إذ أنت فيك النّجاسه
ـ صلاتي؟ ستُقْبَل مني على الرغم منها، ستُقْبَل مني . .
أما يَمم الشيخ بابَ القَدَاسه؟
وتسنح في ذهنة سانحه :
«ألا اعطني لقمةً يا ابنةَ الناظر»
وأنّى لها وهي في قبرها
يُذكّرُني كلّما عربد الخطبُ فينا مَدى صبرِها
وتلك النبالةَ والتضحياتِ إلى منتهى الضوءِ من عمرِها
لها سَمْتُ قدّيسةٍ، وجلالُ نبيٍّ وطيبٌ تفاوَحَ من طُهْرِها
وطيبةُ قلبٍ حفيٍ صَفيّ يرد اللّبانات عن قهرِها
وراحتْ، ولكنها لا تزال هنا، في السويداءِ والخاطرِ
فنذْكُرها فوقنا ساهده
ونذْكُرها بيننا ساجده
ونذْكُرها عفةً زاهده
ونذْكُرها بَرةً مُصلحه
ونذْكُرها بالذكاء الشريف وبالحكمة الشارده
وأُماً لنا مُنْجحه
وكانت كما النيلُ في الصحراء، كظِلّ الغمامةِ في الواقده
كمطمورةٍ في السنين العجاف،
كطَمْي الضِفاف،
كنجم يضويّ للناظرِ
اذا اجتاحت الظلماتُ الفيافي

وصارتْ مغاريقَ للحائرِ

***

أيا ابنةَ أميّ عَصَتْني الدموعُ، لأن مصَابُك فوقَ الدموع(٣)

لقد كنتِ فينا ندىً في القلوب،كما كنتِ فينا شذىً في الضلوع

وكان حنانُك أيكةَ حبٍ تظللّ في الوقدة الصاهِده

وكان يقينك مُسْتَمْسكاً لنا ومصائبنا صاعده

وكنتِ كأمي حناناً وحلماً،

وتقوى وعلماً

ومكرُمةَ زائده

وكنتِ كما أسْمَتِ الوالده

***

يدٌ بارده

بجانب جثتها الهامده

وزُفّتْ الى مسكنٍ جديدٍ عَلَيْها القماشُ الجديد

الى مخدعٍ من تُراب

بأرضٍ يباب

هنا الحيّ كلُّهم غرباء

بلا سيّدٍ أو مَسود

هنا الأثرياء

بغير صُكوكِهمُ والنقود

هنا المرهقون انتهَوا من شقاءٍ

ومن ذِلّةٍ وازدراء

هنا تنتهي الخُيَلاء

هنا الطامحون بغير طُموح

هنا الجامحون بغير جُموح

هنا يخرَس البلغاء

هنا تنتهي العنجهيّه

وكُلّ رياء

ويصبحُ حكمُ القُضاة القضيّه

وينقلبُ الزعماءُ بَلا هيبةٍ أو معيّه

ولا رتبةٍ أو وسام

هنا حُفَرٌ ليس فيها هواءٌ وماءٌ ونور

ولكنها رمٌ وعظام

وحظُّ الوسام

كحظ الدّمامَه

وتزحفُ نحو القبور القبور

بلا خُطةٍ أو نظام

فقبرٌ بلا شاهدٍ أو علامه

كقبرٍ عليه رُخامٌ.. وسورُ

بغير احتفال وغير حبور

هنا تتكدّسُ ما حَصَدتْ حاصدةٌ

لتِلْحقَ بالأمم البائده

هنا تصرخ الأبَديّه:

كَفاكِ، كَفاكِ، كفَاكِ غرورْ

وتصعيرُ خَدّكِ يا بشريه

***

يدٌ بارده

بجانب جثتها الهامده

كأن لم تُكافحْ

كأن لم تصافِحْ

كأن لم تمازِحْ

أطيفالها وتَهدّئُ صدراً مُراع

كأن لم تُصارِح

بسَبَّابةٍ كلَّ باغٍ غَشُوم (٤)

كأن لم تَمدَّ أصابعها للنجوم

وللظلمات غيومٌ غيوم

وما أمْسَكَتْ بانفعالٍ يراعْ (٥)

وما حَرَثَتْها دواهي الصّراعْ

وشِقْوةُ أمٍ رؤومٍ رؤوم

وتحتج أمٌ لنا، «ظلموها». أما علموا أننا بيتُ عِلمٍ ودين..

وفقْرٍ مقيم (٦)

ونضحَكُ.. كم ضحكةٍ سهمُها في الصميم

وكم مُشفقٍ سائل والعدوُ يطوّف

بأبياتنا، والردى لا يريم:

لِمَ الأعينُ الغائراتُ، لم الأرجلُ الراسغه

وآل زيادٍ عَليْهم نعيمٌ

غلائل في السُحَنِ الزائفه

وآل عليّ حفاة ظماء

على الجَمرِ يمشوْن في الصائفه

وَلَيْلُكُمُ سادرٌ في الوجوم
وصُبْحُكُمُ شمسُه كاسفه
وفيم اضطرارُكمُ والمراراتُ والمِحنُ الجمّةُ المسرِفَه
ولو شِئتمُ حمَلَتْكُم أراجيحُ نَعمَائِكم والحياةُ نَسيم
ولو شئتمُ مثلَ مَنْ شاء كنتمْ فَفيمَ؟ وفيم؟
نجيب: ولكنها الحميَّة والمعرِفه
دَرَجنا على الذَّود عن شعبنا وهو جدّ مكلّف
وإنّا نجرّ لأنفسّنا من هموم
بأكثر مما لديْنا، وأنّا ندافعُ عن كلّ حقٍ مُضاع
ونعرفُ
أن الحياةَ مَعاضَدَةٌ - لا مَتَاع
وأنّ لنا غضبةً كلَ يومٍ
تعيث بأعصابنا في سبيل ذريٍّ وكادح
وإنّا ننافح
كيلا يكونَ جياع
وأنّا لذاك نحُوم
بِمَهْجَمةٍ للسباع
فإنْ ضَوّأتْ في أعالي البِقاع
لِمُدْلِج ليلٍ فنيرانُنا
وإن شعّ في العَتَمات شُعاع
يشتّتُها - فهو إيماننا
وإن رنّ لحنٌ شجيّ السّماع
لمستيئسين - فقيثارُنا

وإن راح منا شهيدٌ شجاعٌ
إلى حتفهِ في رضاً واقتناع
فقُرْبانُنا
ويدٌ بارده
بجانب جثتها الهامده
وأحزاننا
ستبقى على جبهة الدهر ذات بريق
كما النيِّرات
ذاك في المدْلَهِمّات سلوانُنا
فوداعاً إذن.. ووداعاً.. وداع
حساماً تَقَصّفَ في القاصفه
وشراعاً تمزّق في العاصفه
وزاهرةً مصّ نحلٌ رحيقَ
زُهيْراتها فتحاتّت فُتات
على شوكِ أغصانها ناشفه
ويا فارساً وحدَه في الطريق
على الرُمحِ متكئاً نازفَ الجرح ـ مات
بَعْدَ أن أمّن الخائفه
وقنديل زيتٍ ـ لئن نَفَد الزيتُ منه
لقد طال ما بدّد الحالكاتِ
وكان مثابَتَنا في الشّتات
الوداع!
ولكِ الشكر ما أنعم المنعمُ

ولكِ الشكر ما انفتح البُرعمُ

ولكِ الشكر ما اخضوضر الموْسم

وما دام فينا حياةٌ . . وفينا وفاءٌ، وفينا فمُ

وما انبجست غيمةٌ راعده .

تُذكّرنا باليدِ الواعِده

وبَذْلكِ للنفسِ يا رائده

الوداع!

---

١) اشارة الى زوجته عائشة محمد احمد فضل، وكانت تلقب بابنة الناظر، لان والدها كان ناظرا لاول مدرسة أولية للبنين بمدينة الخرطوم ولكل السودان .

٢) اشارة لنهوضها مع بقية جماهير الشعب فيما سمي «بليلة المتاريس» عقب سقوط دكتاتورية ١٧ نوفمبر العسكرية .

٣) سجلت اقوال الشيخ كما هي، وما كنت وانا استمع اليه اعتبرها مجرد هتر الكبر العادي .

٤) لم تكن تخاطب إلا بإبن امي على عادة مخاطبة الحنان السودانية القديمة .

٥) في احتفال شعبي بمدينة كسلا سحب التيار من المكبرات حين أخذ خطابها يتعرض بالنقد والتجريم لقادة الاحزاب ازاء تقاعسهم عن محاكمة قتلة شهداء انتفاضة اكتوبر - وهي قضية كانت حبيبة الى نفسها - ولدى احتفال عاصمة الجزيرة بقادة حركة ٢٥ مايو العسكريين بعثت برسالة الى قائدهم جعفر نميري تقدم له النصح الجريء بالا يستدبر هموم الشعب والامة والا يُسكره السلطان، وهو بعض، ما علمت من مواقفها الشجاعة، وحين القي القبض على شقيقتها فاطمة احمد ابراهيم في اوائل عام ١٩٧٦ كان اسمها في قائمة المطلوب اعتقالهن . ولكنها كانت عند ربها منذ اكثر من ثلاثة اشهر . . فتامل!

٦) بعض ما كتبته ضم في كتيب بعنوان «خواطر ثائرة» نشر على عجل حتى تراه - لو كان ترى بعينيها آنذاك - قبل ان يحيق بها الموت الذي دافعته في بسالة بعون أطباء أوفياء خاضوا معها معركتها مع الموت حتى لم يعد ثمة ما يعمل .

٧) علق بعضهم في رسالة نشرتها بصحيفة انها ليست لها رصانة اسلوبها، لاحظت والدتها مدى تاثرها بكتاباتها بالقرآن ثم اردفت ملاحظتها بهذا التعليق الساخر في حماس، يقرن العلم بالدين بالفقر .



مرثية بعد قرابة خمسين عاما

لطفل إسمه حسن

قادتني امي في وقار وجَلَد ممسكةً بسبحةٍ تستعين بها على الصبر الجميل والسلوان، يقينا منها انْ غيرُ لائق بها ان تبدي امام ربها، الا الرضا والحمدَ في هذا الامتحان، يعلمُ العلاّم وحده، ايّ حجَرٍ عصرت به مهجتها، واية نيرانٍ حاشتها في حشاها كي يبدو وجهها على ما بدا عليه وكأنه قُدّ من صُوّان، تنزهاً منها ان تشي قسماتها، بأقلّ امتعاضٍ او ضعفٍ لأن الله أخذ منها وليدها ذاك، همست لي بحنوٍ شديدٍ بمثلما فعلت مع اخواتي: تعال قبّلْ أخاك قبلةَ الوداع الأخير، في الغرفة الموصدةِ ابوابها ونوافذُها، غرفةِ الموتِ المُعتمة، كان «حسن» مُسَجّى بطوله على السرير، مغمضاً جفنيه كالنائم، جميلاً ونضراً بأكثر مما كان عليه حياً، وعلى محيّاه سكينةٌ مطلقةٌ هي سكينةُ الموت.

انحنيتُ ألثمُ جبينه الباردَ في تؤدةٍ وتساؤلٍ داخلي. لم ازدْ ولم أُطِلْ. ثم أخذوني عنه في الصمتِ المشبّع بالرهبة، بعدها أدرجوه الكفن، وحملوه الى أين لا ادري حيثُ دُفن. هكذا انقلبتْ الفرحةُ ترحةً، والضوضاءُ الضاحكةُ همساً وخفوتاً وبكاءً مكبوتا.

كنتُ مختوناً اتمشى بلأيٍ، اجرُّ قدميّ جرّاً خُطوةً خُطوةَ فالجرح جديد. عارياً الا من قميصٍ طويل اشدّه بعيداً عن وسطي بأطراف أصابعي المخضوبة حنّاء، ورسغي الذي يتدلّى منه «الجرتق الاحمر» متماشيا بالمسابحِ والقلائد التي على صدري ببطءٍ شديدٍ وحذر، بجرحين طازجين اكبرُهما واكثرُهما أيلاما ذلك الذي في صميمي لا يبرأ قط ما حييت.

وحتى تركنا بيتنا ذاك في حي العباسية بأم درمان، ظل يستوقفني على جدار

فيه ما بين حينٍ وحين، اثرٌ طينيٌّ ربما احدَثته كرةٌ قذفَ بها «حسن» عليه أو مسحة بيده العالق بها بعض طين، اثرٌ يذكرُني دائماً به، وبمراحنا ومزاحنا وعبثنا الطفولي نحن الاثنين، كلما وقعت عليها العين. بل ما بَرِح ذلك الأثرُ الطينيُّ منذ غادرنا ذلك البيت وحتى اللحظة، لاصقاً بجدار ذاكرتي لا ينمحي.

اليومُ خطر لي «حسن» بلا مناسبة، بكيتُ كما لم أبكِ عليه قطُّ قرابةَ خمسين عاماً مرت عليّ بدون «حسن». بكيت وكأنه مات لتوّه، وبأحرَّ مما فعلت آنذاك، فرأيتُ قبل أن الحقَ به في زمنٍ آتٍ، ان تعرفَ شيئاً عما كان عليه «حسن» خلال عُمره القصير، وكيف مات «حسن» يوم ختاني، لذا امسكتُ بالقلم وكتبتُ هذه الانطباعات، تاريخاً لحسنٍ وتخليداً له.

بعد وفاته كبرتُ بدونه، وكثيراً ما كنت اتساءلُ ماذا كُنّا سنقوم به معاً اذا كان قد كبر معي وبجانبي، وماذا سيكون عليه «حسن» إذا كبر، فتزداد حسرتي عليه، ولكن احمدُ الله على حكمته التي تجلُّ على الأفهام، ولكلّ نفسٍ اجلُ لا يقدُمُ ولا يؤخَّرُ:

ولقد عانيتُ، عانيتُ مراراً ومريرا

مثلما انذرَني عارِفُها طفلاً غريرا

وقت انْ مات أخي ذاك الصباحْ.

اتشَهّى الرحلة الكبرى الى المجهول..

بي تَوقٌ وشوقٌ واصْتنات

فَلَعليّ سامعٌ صوتاً ينادي

من مكانٍ ما.. خضيرٍ وندي

صوتَ عصفورٍ رشيقِ الرفرفات

ذهبيِّ الريشِ في مَفرقِه تاجٌ انيقٌ هُدهُديّ

قافزاً من فَنَنٍ يصدح فيه لفنَنْ

عاتباً ما بين جِدٍ ومزاح:

أأخيراً؟

أأخيرا؟

بعدما طال ارتقابي لك..

يوماً بعد يومٍ بعد يومٍ.. كلُّ هذي السنوات

ما تَغيّرْتَ كثيرا يا (صلاح)

كم تَغيّرْتَ كثيرا..

مرحباً!

***

اختفاءَ الشُهبِ..

فجأةً..

في خِضمِّ الظُلماتِ الدامسه

مات «حسن».

***

حسنٌ كان شقيقي

وصديقي.. ورفيقَ اللعِبِ

مات دون الخامسه

مات لمْ نَعْدُ معاً للمدرسة

مات أُمياً «حسن»

***

كان ما أحلاه ذيّاك الصبي

بإهاب بين أمي وابي

سُمرة البوصِ، وكاكاوٌ تماهى بلَبَنْ

وبدنْ..

فيه معنى من شهيِّ الرُطَبِ

وتزاويق مناقيشِ اليمن

***

ومُشعّاً نيّراً كان « حسن »
كَثُريّا انحبَسَ النورُ بها في مُحتقَنْ
فإذا مَرْجَحَة بلُّورها الصافي إنقدح
ببريقٍ
ناشراً في قلبها قوسَ قُزَحْ
***
أيّ جفنٍ لم تكن تلمعُ فيه الحَدَقات
كلّما احْلولى « حسن » . .
ورؤوسٍ لم تكن تتبع مغناطيسَه ـ بالتفات
أينما أبدعَ في لهوٍ « حسن »
بينما الأُمّاتُ يخشيْنَ عليه النازلات
فيُعوّذْنَ بِحرزٍ، وبخورٍ، وصلاةٍ للنبي
ومع ذلك مات
إنغماس الشُهبِ
فجأةً . .
في مدادِ الظُلماتْ
***
مات والاهلُ جميعاً في فَرَح
بختاني ـ « حسنٌ » لم يُختتَنْ
مات في يومٍ كَمَنْ
شبحُ الموتِ له في المِلعَب
جرّهُ من يدهِ، قدّامنا، نَتْلاً بدائياً وَقِحْ
لم يُتحْ لي منه إلاّ حَسَراتِ

شعشعتني ثم أُهريق القدح

***

وآه ما أسعدَه ذاك الضُحى

متباهي.. مُفتتَنْ

بأخيهِ في الحريره..

والذريره..

وهلال الذهبِ

ضاحكاً، مستضحكاً، عَذْباً لذيذ التُرّهات

جَزِلَ اليَخضُور، في أينع ما يزهو نبات

دائراً في الحفلِ نافورةَ بهجَه..

ومَرَح

بُرْعُما باكَرهُ الطَلُّ مع أولِ نجمه

فاصطبَح

واصطفانا بشذىً من أرَجِ الفِردَوسِ

ينداح غماماً فاغماً ، صحّى الخياشيمَ وفاتْ

ضاعَ من ذائقةِ الطيّب بلا رُجعى..

ولكنّا حَدسناه بتلك النَفَحات

فإذا الذاكرةُ الجوعى رئات

تتضاغى بأكفٍ ضارعات

وعيونٍ شَرقاتٍ زائغات :

لهفتنا اين « حسن » ؟

أين « حسن » ؟

أين « حسن » ؟

***

بَغتةً، غاضت من الوجهِ الحَسَن

والثنايا ـ البَسَمات

أنّ من حُمّى حريقاً صهدُها يشوي البَدنْ

خِرقةً معطونةً، منخطِفَ اللونِ انطَرحْ

شاخصاً نحوي بتهويمٍ كمَنْ

تلّهُ التخديرُ، أو أثقلَ جفنيه الوَسَنْ

آيساً؟

أم تُرى مُستنجِداً بي؟

والمنايا أنشبت في لحمهِ بالمخلبِ

وبمنقارٍ كساجور «سُليمانَ» حديدي

وأقلّتهُ جميعاً بجَناحْ

لبعيدٍ.. فبعيدٍ.. فبعيد

بَم يُجدي وقتها أنْ يدَه نادتْ يدي

وهي تستجدي عَصِيَّ المَدَدِ

أو أجابتْ أمُّه عاجزةً: إنّي هنا يا كَبدي!

أو أهابتْ اختُه جازعةً: إبقَ «حسن»! معنا

إبقَ «حسن»!

إبقَ «حسن!

***

كيف يبقى؟ وتقضّى العمرُ، كلُّ العمرِ ـ الأ بُرهةً

هي تلك اللّحَظات

ناظراً لي بازوِرارِ الشمسِ عندَ المغربِ

ما الذي يملك ان يورثَنيهِ غيرَ تلك النظرات
غائمات بوداعٍ، ربّما، أو موعدِ
حين ساقوني منه و «حسن»
أسبَلَ الهُدْبَ، وأسرى في السُباتِ الأبديّ
***
قيل لي لا تؤذهِ يا ولدي ببكاءٍ، فحسن
راح للخلد ملاكاً فاستراح
من معاناة ستبلوها كبيراً في غدِ
بين شكوى وحَزَنْ
«حسنٌ» راح سريعاً.. هكذا
فديةً..
وزكاةً..
وشفيعاً.. لكُم
لا تَبكِيَنْ يا ولدي
ستلاقيه وإن طال الزَمنْ

رثاء ساقيهْ

على القمح عند الحصاد التحيه
على اللهوات الشقيه
على أعظُمٍ برزت من جدار
على العشب جفّ على وجنتيه اخضرار
وندفٍ من السّحب حيًا وفات
كنزْف الأجنّة في الأمهات بغير جنى
على شقشقات الطيور أصيلَ وَجَمَتْ في الوكور بغير غِنا
على شفقٍ غاب وهو جميلٌ وكان يقول أنا وأنا
تحييه: وَاهٍ وَوَاهٍ وَوَاهٍ
أنينُ السواقي عشيه، على شاطئ النيل.. آخذةً في التّشكّي
فتبكي المياهِ
وتبكي.. وتبكي وتبكي
فتسمعها في التراب البذور
وترفع أهدابها تتثاءب ثم تمدّ الجذور
أيادٍ بها رعشة مثلَ شك

لها . . للنخيل . . لثورٍ صبور

لطفلٍ على (التكم) وسْنانَ وهو يدور

يقول القواديس(١) مثل القلوب

تحن إذا انعطفت فتذوب

كسرنا على شاطئ النيل ناي

صداه يرن فأسمعه في صداي

وتحمله الريح والسافيات

تجر على الآهلين الفلاة

وتنشرها كفناً يدفن الموطنا

فَتَحْتَ ركامِ الرمال مساكن

لحيٌّ تمسكن مثل سواكن(٢)

مبانٍ بها أصبح البوم ساكن .

---

(١) القواديس : جمع قادوس وهو الاناء الذي يحمل الماء من قعر البئر الى الساقية .

(٢) سواكن : مدينة تقع في شرق السودان هجرها سكانها .



طفل المجاعة

اعرف رئيساً أغنى من بلاده، ببساطه لأنه هو الذي نهبها وأنهبها.. أعرف نصاباً لقبه فخامة الرئيس وعمله الحقيقي.. قوموسونجي.. أعرف بلاداً غنية بما يدهش، يطمع في ثرواتها القريب والبعيد.. وتستجدي.

كذبوا على شعبها باسم الاشتراكية باسم الاسلام.. صاروا اغنياء وصيّروه مدقعا. ظلموا الرعية واستباحوا كيدها.. وعدوا مصالحها وهم أجراؤها. غير أن العطش الشديد يا شعبي لا يفجر الينبوع. ولن يزيدنا الصبر والانتظار إلا.. دمار. لا يفل الحديد الا الحديد. ترداد الشعارات العمياء لا يدل الا على مثابرة الببغاء. دون نظرة أمينة لما كان، لن تكون هناك نظرة ثاقبة لما سيكون. المعركة اشد ضراوة مما نظن لان الواقع صار اكثر تعقيدا مما كان. الحلول التبسيطية لن تبسّط الإشكال، هل نحن انداد للتحدي؟

قد يسقط القناع ولكن ماذا نفعل مع الوجه الذي يخفيه؟

لماذا طال عمر هذا الهوان، وماذا أعددنا للهوان الجديد؟

هل تحمّلَ كلّ منا مسؤوليته بضميرٍ مسؤول.. وهل هذه كل عدة شعبنا وعتاده؟

هل نستحق كل هذا؟ هل يستحق شعبنا كل هذا؟ هل يستحق السودان كل هذا؟

ما المخرج؟

الخطة غير الإنشاء، والتعبئة غير النداء، وتحقيق النصر غير الرجاء.

الوجوهُ الخطاطيفُ مِنّا، ولكن علينْا..
عيونٌ عناكب
تُلقي من الريّق فينا شباكْ
لتشُكَّ - الهوينى - مزاريقها في الضلوعْ
فتحلبُ من غدةٍ عَرَقاً بارداً، وترُجُّ الكيانَ ارتباكْ
فإما خنوعٌ.. وخوفٌ.. وجوعْ
وإما هلاك

***

النسيجُ اللّزِجْ
النسيجُ الذي يحتوينا.. فروع
من الشجر الأخطبوطِ، تعطّشَ للدمِ في الأمزونْ
الدمُ البشريُّ شرابُ وحوشِ البشرْ
شاخباً.. دافئاً من وتينٍ فَصيدْ
عسلاً في عَصيدْ
دمٌ في الستائر، في حِليةٍ تتغامز، في حَبَبُ أنعشتُه كؤوسُ السّمَرْ
سال أغنيةً من وَتَرْ
عطلةٌ في الريفيرا.. وعُمْره
ودعوةُ سائحةٍ حلوةٍ ذات سُمره
وطفلٌ من الأقحوانِ طَرِيٌّ المَسرَّه
له في المصارف قبل الفطام رصيدْ
لأنَّ الّدهاءَ ابنُ عمٍّ الذكاء
ذكاء السناجيب، حين السناجيبُ تَجْمَعُ كالكَسْتناء.. قلوبَ البشرْ
ويكبرُ في البيت ذئبٌ رَبيبْ
لأنّ الوجوهَ الخطاطيفَ قد نَسِيتْ في الصِغَرْ

دموع الجمالِ الحزين
نَسيَتْ ربما.. أو لأنّ الذي مرّ عبرَ السنين
عليْها نيازكَ.. غوّرَ مِلء الضميرِ الحُفرْ
***
كنتَ وحدكَ في أُفُقٍ تترقرقُ فيه الركائبْ
يسائلكَ الجائعون، استطالت عظامُ أصابعهم تتنسَّلُ في زفرات الأنين
دلاءً بآبارِ «ريرة»: هل أنت ذاهب؟
أطيفالهم خِرَقٌ في الأيادي، نعوشٌ سوى أنّ فيها رَمَقْ
أقول: لآتي لَكُمْ بالحليب، وآتي لكمْ بالمَرَقْ
فيا لاجئين من القحط لا تُنْكروني، أنا مَعَكُمْ في الهجيرةِ لاجئْ
فتحتُ مطاميرَ قلبي، وطرّقْتُ حُبّي سيوفاً لأيدِيكُمْ ودَرَقْ
وشاهدَ قبرٍ، وذكرى وفاءْ
وصلاةً لغائبْ
لشعبٍ بقارعةِ الدرب مثل البعير نَفَقْ
وهم يقذفون لكم بعظامكم في ازدراءْ
رقّموها بأختامها، فالنظام نظامٌ، أما.. حققوا العدلَ والاكتفاءْ؟
وهم دولةٌ فرعها في السماء؟
فاشكروا السادة الحالبين لِحاهم رياءْ
أشكروهم على مِنّهِمْ، والأذى، ومحاكمِهم، والهراءْ
واطيلوا الدّعاءْ.
أشكروهم على لَحْمِ شيخٍ تأرجحَ في شفتيْه الشّفَق
وأسماؤكم وفق ترتيبها الأبجَدي مقيّدةٌ بسلاسلهم في الورقْ
ورقٍ دُوَليّ، لكيسِ حليبٍ عليّه الصليبُ ينزّ دِماءْ

لن تَرَوه - فقاطعُ أيدي اللصوصِ سَرَقْ
طوّفوا في الطُرقْ
فَرِحين بعاهَتِهِم أتْقنوا صُنْعَها - يسألون بها المحسنينَ
دونَ حياءٍ ودونَ خُلُقْ
فَبِها أصبحوا أثرياءْ

***

صوتكم أرجَعَتْهُ اليَّ السماء
في الظهيرةِ ظامئ
وآلَهْفتَا بعضَ خبزٍ وماء!
بعضَ خبزٍ وماء!
أيها اللاجئون، وأنتم أنا، غير أني سعيركُم المُشْرئِبُّ
وقد حَصَرَتْهُ جنود الطوارئ
أضْرمَ في الليل أضلاعَه واحترقْ
فيا طفلُ، يَمْدُدُ كفينِ من محجَرَيْه، يسائل عن زُبدةٍ كُنزتْ في المخابئْ
لئن عشتَ رغم المجاعة، أحفظ رمادي، احفظه في أصْغَرَيْكَ مبادئْ
فلا يجعلونك بين الوجوه الخطاطيف - منّا ولكنْ علَيْنا
ولا يجعلونك نخّاسَ قوْمكَ يا ابن اللذين..
فإني رأيت فتىً كان مِنّا، ولمّا نما صار كالوحش فينا.

الكلب المقتول على القارعة

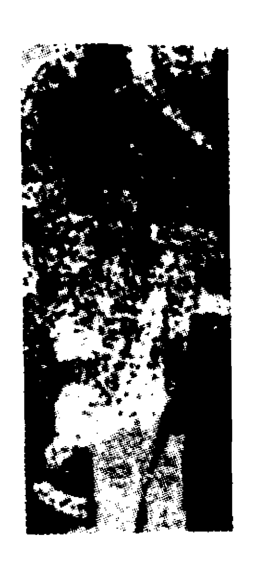
كان كلباً أغبر اللون سلوقياً
بطنه خمصانة مثل هلالْ
كان كلباً أخمص البطن سلوقياً
كالجواد الحر نبلاً وجمالْ
كان كلباً طيب القلب سلوقياً
ليس في بعض بني آدم ما فيه
خصالْ
نفذت شاحنة مسرعة من فوقه..
في طرف السوق .. استمرت وارتمى
ينزف في عرض الطريق
راقداً في بركة سالت دما..
أسود في عرض الطريق
دون أن تسعفه كف صديق
لاهثاً في وجع يفرمه غير مطيق
وحده أنّ طويلاً فوق أسفلت الطريق
ثم مات الكلب

« كالكلب »

وكان الجسد النازف في قارعة

الدرب . .

على شكل سؤال!



مصرع شاعر

وأنا كأمهَرِ صانعٍ
في زحمة الصّين القديمة في زقاق ضائعِ
عبرته جلجلة الحياة على حمار ظالعِ
والناس كالسيل القوي الدافعِ
المُتَكوّن على المحفات المزركشة بالحرير اللامعِ
والراكبون على الخيول الآدمية في اللّهاثِ الخانع
والهاربون من المجاعة كالقطيع المُفْزَع وسوء الطالع
خطوَ الجراد ورقصةَ الكوليرا،
ويدَ الجفاف وحيرةَ الحقل الجديب البَلْقَع
«بوذا» تخلى عنهمو للطامع
من بعد طول صداقةِ الزمن الخصيب المُمْرِع
لم يستجب لتضرع
والناس كالسيل القوي الدافع
صُفْرٌ وقد ملأوا الزِقّاق بكل أصفَر فاقعِ
كاليأس، كاليرقان، كالغثيان
في ذاك الزقاق الضائع

وأنا كأمهر صانع
من زفرة الولدِ اليتيمِ الدامع
ومُواءِ طفلٍ جائعِ
من مِبْرَدِ اليأسِ الطويلِ القاطع
ومن التأخر والجمود وكلّ معنىً ضائعِ
في شعبنا المسلوخ في خطّاف أردأ واقعِ
من عائشين بلا حماس في زوايا الجامعِ
من عُهْرِ كف السائلين بِدِرْهم المتبرّعِ
من رعشة السم المرير الناقعِ
من اختيال السيد
ومن انكسار التابع
أنا كم أخذْتُ ترابَ فنٍّ واقعيّ
وسحقتُه في هاوني
ومزجتُه
وبلَلتُه بمدامعي
وعجنتُه بأصابعي
وصنعتُ تمثال الشقاء الفاجع
وتركتُه ليَجفَّ تحت شعاع فكرٍ ساطع
وحرقتُه في أضلُعي
في فُرْنِ قلبي المُوجع
وعرضتُه في السوق شأن البائع
ولخيبتي بارت جميع بضائعي
يا وَحْيُ، يا إلهامُ، منذ مرَرَتَ أنتَ بشارعي

وطرقتَ بابي فاستضفتُكَ تَستجمّ بِمضجعي
تقتاتُ من ذهني وتقتسمُ انفعالاتي معي
ووثَقْتُ فيك فما فعلتَ؟ أخذتني بَمجامِعي
لوّحتَ لي ببريق وهمٍ خادع
وهربتَ لم تترك لديّ سوى حقيرِ مطامعي
إن كان سرَّكَ أن ترى ضعفي
سيمسكني تواضعي
لِتَمُطَّ صبرك كيف شئتَ فلن أُريك تصدُعي
سأريك يا جبارُ روعةَ مصرعي
أفلا رددت ودائعي؟



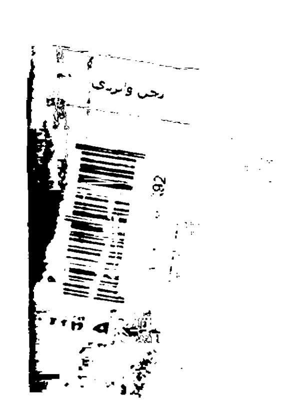
المحتويات

لا عجب من استكثار صلاح من الشواهد والإشارات الدالة على تأثره بثقافة السيرة والدين ونوادر الأدب العربي، وكان أبوه رحمه الله من أساتذة العربية والدين، فقد نشأ في دار ثقافة اسلامية، معلماً شديد التقوى، غضيض الطرف، معروفاً بذلك، مشهوداً له فيه.

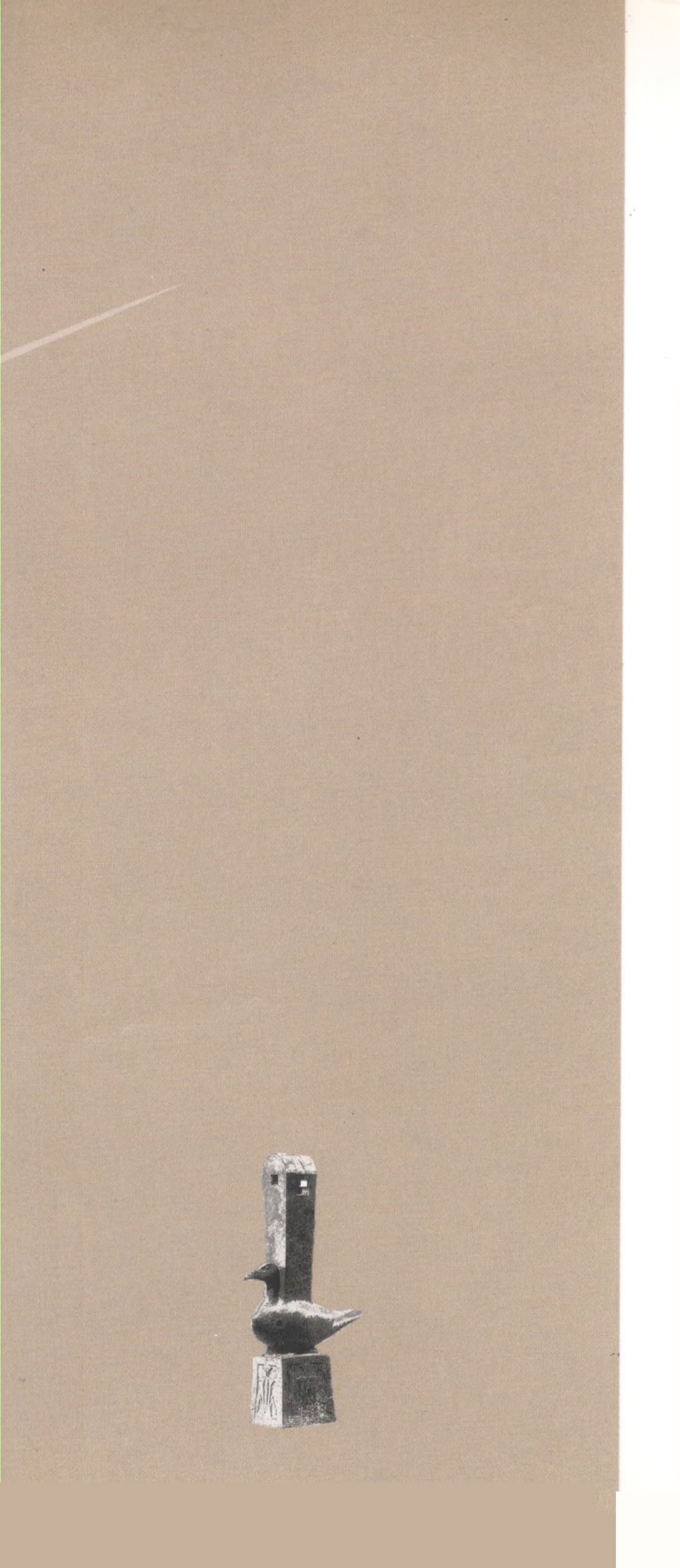
وقال صلاح يفتخر ببعض ذلك في قريضه:

نترك الدنيا وفي ذاكرة الدنيا لنا ذكر وذكرى
من فعال وخلق
ولنا إرث من الحكمة والحلم وحب الآخرين
وولاء حينما يكذب أهليه الأمين

د. عبد الله الطيب




لا لإحتكار
الكتب السودانية



لا عجب من استكثار صلاح من الشواهد والإشارات الدالة على تأثره بثقافة السيرة والدين ونوادر الأدب العربي، وكان أبوه رحمه الله من أساتذة العربية والدين، فقد نشأ في دار ثقافة اسلامية، معلماً شديد التقوى، غضيض الطرف، معروفاً بذلك، مشهوداً له فيه.

وقال صلاح يفتخر ببعض ذلك في قريضه:

نترك الدنيا وفي ذاكرة الدنيا لنا ذكر وذكرى
من فعال وخلق
ولنا إرث من الحكمة والحلم وحب الآخرين
وولاء حينما يكذب أهليه الأمين

د. عبد الله الطيب

نحن والردى

